عمرو العادلي

عالم فرانشي



إلى حارسة مستودع الحكايات..

أمي..

حدث ذلك في الماضي البعيد جدًا، القريب جدًا جدًا.

أم غطّاس

طقس الخبيز الشهري ممتع، لا يمكنني التنازل عنه لأي سـبب، أستيقظ بعد الفجر بقليل، أتعثّر في غيوم الصباح وبقايـا الأحلام، يذهـب أبي إلى العمل، تحمـل أمي فوق رأسـها جوال دقيق، وأحمـل أنا ورقة خمـيرة، أتعلّق بذيل الجلابية الأسـود، أحتمي تحت ذراعها طوال المشـوار من كلاب السكك وبرد الصباح.

يقطـع طريقنا سرب كتاكيت صغـيرة لها زغب أصفر. نفاديهـا ونشـق طريقنا إلى الشـارع الخالي. نصـل لبيت أم غطّاس الخبَّازة، شيء ما في مُخي يربط بين الغُطاس والخبيز،

فكل غطَّاس لابـد أن يكون خبَّازًا. صاحبة الفرن والبيت كانت امرأة سـمينة، يُشِـعُّ وجهها دائمًا بالصهد والحُمرة، تفرش الأرض بمؤخرتها وتجلس بين النسوة وهي ترتدي قميصًا مقوَّرًا بلا أكمام، تتحلق حولها ثلاث نسـاء بادٍ على وجوههن أثر النعاس.

قبـل أن يشـتعل الفـرن بالقش ألـفُّ حوله مـع الولد غطّاس، من فوق السطح يبصق على السائرين في الشارع، ثـم يبتعد عن السـور بسرعة، نعود للّـف من جديد حول العجـين والقـش. الصهد الخارج من الثقـب الأحمر يُلوِّن وجوه الجالسـات، نشـعر ونحن قريبان من النار بالدفء والأمان.

أتجـوّل مع غطّاس، أسـتمع لحكاياتـه وأصدِّقها، آخر مرة جئتُ للخبيز مع أمي كانت منذ شهر؛ حكى لي حكاية الولد أدهم الذي شقّ بطن الولد كريم باحثًا عن «النونو»، أتحسّس سُرَّتي وأسأله:

ـ هوَّ في بطن كل واحد نونو؟

ويرد بنبرة خبير:

ـ طبعًا، في بطن كل واحد نونو.

تضرب أم غطّاس الولد غطّاس بعصا رفيعة تسحب بها الخبز من الفرن، فيدفعها بعيدًا عن مؤخرته ويشتم أمه، تقذفه بطوبة جاهزة تحت فخذها السمينة، يقترب غطّاس من أمه ويسألها:

ـ عاوزة إيه يا وليَّة انتِ؟

يقول وهو يهشّ عن وجهه ذباب الصباح النشيط.

ـ يولولوا عليك بدري يا بعيد. الحق عليَّه عايزاك تطفح.

تسحب أمه بعصاها من الفرن عروستين عجين بالسُكّر، تُعطيه واحدة وتُعطيني الأخرى. نُمرّر الصهد الخارج من بطن العروس على وجهينا، ثم يلتهم كل منا عروسه المسكّرة دون كلام.

بعد أن ننتهي من أكل كائنات العجين نعود إلى موضوع الولد أدهم والولد كريم، ويقول غطّاس:

ـ عارف.. الواد كريم ملقوش في بطنه نونو. لقوا دم بس.

وعـدت أنجذب لحكايات الولد غطّـاس مرة أخرى، وأسأله:

ـ وإيه اللي حصل لكريم؟

يرد غطّاس وهو يشـبّ فوق السور ويبحث عن رأس أصلع يبصق فوقه:

ـ محصلش له حاجة. بس مات.

أرسـم سريعًـا صورة لكريـم الذي لم أكـن أعرفه، ثم أحزن عليه وفقًا للصورة المتخيلة عنه، لم أكن مُرحِّبًا بفكرة أن يمـوت كريـم بعد أن كـبر وأصبح في الصـف الثالث الابتدائـي، لم يقل لي غطّاس أي معلومات، ولكنني تخيلته بملامح واضحة وفي الصف الثالث، وتخيّلت الولد أدهم نحيفًا وأسود وعينه حمراء يملأها العماص، وطالع له شامة عنقـود عنب في قفاه. ثم تطورت الشـخصيات في رأسي، وأخذ القاتل مساحة أكبر بكثير من القتيل، القاتل شخص قوي، أما القتيل فهو الآن تحت التراب. وبدأت أخاف من أدهـم الخيالي، بل أخـاف من اسـمه، وأتعاطف مع كريم المظلوم مشقوق البطن، بل وأحب اسمه.

يتركني غطّاس ويسحب رغيفين ساخنين من المشنَّة دون أن يراه أحد:

ـ بتاكل من عيشنا؟

يمد يده لي برغيف، ثم يبدأ في التهام الآخر:

ـ كده متقدرش تقول لامك.

ينزوي غطّاس في ركن بعيد، ثم يعود ويده ملطخة بالمِش، في كفه ترقد قطعة جبن قديمة، يعطيني بعضها:

ـ كده محدش أحسن من حد. أنا سرقت عيش من أمك وسرقت جبنة من أمي. وعلشان تبقى عارف.. أمي بتاخد عشر أرغفة من كل ست بتخبز عندنا. والستات عارفين انها بتاخد، بس دايمًا بيعملوا مش واخدين بالهم.

نلتهم المسروقات ونشرب ماءً كثيرًا، نمسح شفاهنا لطمس الأدلَّة، وأسأل غطّاس دون ترتيب مُسبَق للكلام:

ـ هوَّ انتَ ليه مسيحي؟

لم يُبدِ غطّاس حماسة للكلام في الموضوع، يرد وهو يُقلّدني:

ـ وهوَّ انتَ ليه مُسلِم؟

يربكني السؤال ولا أرد، لكنني أقول بسرعة كي أثبت له تفوّقي:

ـ علشان فيه مصحف في بيتنا. وبرواز فيه كلام كبير بخيوط مُذهب، وإذاعة القرآن الكريم شغّالة على طول.

ويقول غطّاس بنبرة صوت واثقة:

ـ طيب وإيه يعني. ماحنا كمان عندنا صليب في الصالة، وصورة فوقه لمارجرجس. والإنجيل محطوط فوق الراديو، ولو عندنا إذاعة إنجيل كريم كانتْ أمي هتشغّلها برضه.

قرآن كريم وإنجيل كريم، وأتذكّر الولد كريم مشقوق البطن، وأركّز أكثر مع غطاس الذي يُثبت أنني لا أتميّز عليه في شيء، كل منّا عنده أدلّة إيمانه التي تكفيه، فيقول بعد سَرَحَان طويل:

ـ بس محدش بيقرا في الإنجيل. وبرواز مارجرجس عليه كوم تراب، أمي دايمًا بتقول إنها حاجات مهمة أوي في البيت، وميتفعش نعيش من غيرها.

لا أرد، فقـط أتذكـر، ما قاله غطّاس يحـدث مثله تمامًا عندنا، فمُصحفنا عليه كوم تُراب لا يجد من يزيله، وبرواز آية الكُرسي ملزوق بلاصق شـفَّاف، مُعلق فوقه سبحة لا لون لها. يُخرجني غطّاس من سرحاني:

ـ تعالَ نخلي أمي تعمل لنا عروستين بالسُكّر تاني.

نقـترب من الفـرن، نرى ماجـور العجين وقـد تحوَّل بالكامـل إلى أرغفة مرصوصة أطول منَّا، كانت أم غطّاس بالفعل تُبطّط عروسـتين وترش عليها السُكَّر وتضعهما في الفرن، تنتفخ العروستان ويحمرّ وجهاهما، يمد غطَّاس يده لأمه فتضربه بالعصا الجاهزة دائمًا تحت فخذها:

ـ العرايـس دول مـش لكم، دول لـولاد أم وحيد اللي دورها جه في الخبيز.

وبالفعـل، تقـترب أم وحيـد وهـي تسـحب ابنيها في يدها، واحد يبكي والآخر شـبه نائـم، تُفرغ جوال دقيقها في الماجور بنشـاط، وتقوم أمي بكسـل، تُكمل رصّ الخبز وتنفض جلابيتها من أثر الدقيق.

وأسمع صوت أم غطّاس موجّهًا لابنها:

ـ شيل يا واد معاهم. عدّيهم الشارع وتعالَ بسرعة علشان تجيب خميرة من عبد الفتاح.

يدبّ غطّاس بقدميه الأرض، ثم يحمل معنا رصّة طويلة من الخبز المِلَدّن. وتحمل أمي العيش الطري. ننزل ورصّات الخبز تحكّ في السلم الضيق. السلم مظلم والدَرَج مكسور، لم يبقَ في رأسي من حديثي مع غطّاس إلا ما يشغلني بالفعل، تتشكّل أمامي في الظلام ملامح الولد أدهم والشامة تملأ قفاه، والولد كريم هزيل ويخرّ الدم من بطنه.

الولد الذي كان يلعب
في سيرك ثم انتقل إلى الغابة

لحظة انفجـر الكائن البُني الصغير تحت القدم العارية؛ تعوّدتْ عيني منظر القتل، بل وتعوَّدت تبريره.

حدث ذلك وأنا ابن عامين، ربما عامين وبضعة أشهر، «هذه الكسور كانتْ تساوي رُبع عُمري تقريبًا»، الأحداث مشوَّشة والأشـخاص لا تظهر لهم معالم واضحة، والدنيا كلهـا لا تخـرج عن كونها بسـاط صغـير يشـبه الأحلام، والكون يُغلِّفه غموض جميل، المهتمون بي اثنان، وأستطيع العدّ حتى ثلاثة، والألوان أربعة.

اشــترى لي أبي حذاءً جديدًا، أو صندلًا، لا أتذكَّر، كان له ســير وأبزيم، مــن الخلف أو من الأمــام، لا أتذكَّر، كل ما أتذكَّره أنه قدَّمــه لي في كيس أخرجه من كرتونة بيضاء، والكرتونة كانتْ كبيرة جــدًا ومكتوب عليها كلام باللون الأزرق، اقــترب مِنِّــي ورائحة كولونيــا الحلاقة تفوح من وجهه، أجلســني على حِجرهُ ورفع قدمي ليلبسني الحذاء، كان واسعًا فشــدَّ الحزام وربط الأبزيم، وقفتْ أمي تتابعنا وهي تبتســم. بعد أن لبستُ الفردتين وقفتُ على الأرض، مشــيتُ خفيفًا كعصفور يســتعد للطــيران، اختفى أبي مع أمي داخل الغُرفة وأغلقاها، وأثناء بحثي عنهما وانشــغالي بالحــذاء لَمحْتُــهُ يمــشي بعيدًا، كائــن صغير بلــون حذائي الجديــد، له أقــدام نحيلــة وسريعة، غيــاب أبي وأمي كان فُرصــة لكي ألعب معه وحــدي، كان الكائن يجري فجأة، ثُــم يتوقَّف فجــأة، يطلع عــلى الحيطة وأحــاول أن أقلِّده، تخيلــتُ بأن حذائي الجديد سيســمح لي بذلــك، ولكني لم أســتطع. ثُم صعد فوق السقف ومشى بالمقلوب، شبكت أصابع يديَّ لأتلقاه عندما يقع، لكنه لم يقع.

كنــتُ كلما خطوت خطوة يســبقني بخطوات، يتوقف

لمدة وينتظـرني، وعندما أصـل إليه يجري بسرعـة أمامي، يدخل تحت رف صغير، وقبل أن أكتشـف مكانه بالضبط يخـرج من الناحيـة الأخرى، يتجـوَّل حُرًا بـين البوتاجاز والحلل، يمشي على حافة دلو مليء بالماء ولا يقع.

يدخل عم عبـده جوز أمينة على كرسـيه المتحرك، عم عبده جالس وأمينة تدفع الكُرسي، وأسـمع اسمي «ازيك يـا أيمن»، لا أرد، بل أتابـع صديقي البُني الصغير، كادت العجلات الكبيرة أن تدهسه، ولكنه ذكي جدًا، أفلت منها وصعد فوق الكُرسي، تسـلَّق المسـند واليد وطلع على قفا عـم عبده، لطمتـه أمينة بقوة فطار لمسـافة كبيرة في الهواء، وسـمعت صوت عم عبده «إيه ده يا أمينة؟»، وترد أمينة: «مفيش دا صرصار».

وأعـرف أن صديقي الجديد اسـمه صرصار، وأبحث عنه بعد أن يدخل عم عبـده جوز أمينة إلى غرفته، أحاول أن أتذكّـر اسـمه بصعوبة، صورصـار، صورصار. رددته كثيرًا فنجحت في حفظ اسمه، صورصار. صورصار.

مـرَّة أخرى، وجدتـه راقدًا تحت قعر حلَّـة، ما إن رآني

حتى خرج، كان يمشي بالطريقة نفسـها، وبالنشاط نفسه، لم تؤثّـر في حيويتـه لطمة أمينة القويسة، لم أعرف؛ هل وقع على الأرض بسرعة؛ أم طار عندما لطمتْه؟ لفّ حولي كأنه يرسـم دائرة، ثم أصبح يقودني وأتبعه، نسيت أمي وأبي، نسـيتهما تمامًا، لم أتذكرهما إلا عندما فتـح أبي باب الغرفة، وكانـت أمـي تقف خلفـه بنصـف ملابسـها، وأبي يقف بملابـس بيضاء صغيرة، لكنـه مـا إن رأى صديقي البُني حتـى جرى بسرعة وترك أمي: «حاسـب. حاسـب»، ثم داس عليه بقدمه الكبيرة العارية، وعندما رفع قدمه رأيت صديقي ساكنًا وملتصقًا بالأرض، بكيت، وخفت، حملني أبي ومسح دموعي وقبّلني، دخل بي إلى الغُرفة وهو يقول: «متخافش يا أيمن. حد يخاف من صرصار. دا صرصار. أنا موتّهولك ابن الكلب ده».

عم عبدُه جوز أمينة

ـ خلي بالك من عمك عبده.

يقـول أبي ثـم يتركنـي معـه، لم يكـن مـن الطبيعي أن آخـذ بالي أنا الطفل مـن عم عبده الذي هـو أكبر من أبي، منذ وعيتُ وأنـا أراه مع زوجته في الغرفـة المقابلة لغرفتنا الصغيرة، نسـتخدم معهما الحمَّام نفسه، ونخرج من مدخل البيت معًـا، وأحيانًا نتبـادل بعض أطبـاق الطبيخ على ما قُسِم.

أمينـة زوجته امرأة طيبة وبدينة، صوتها مبحوح وليس لديها أطفال.

لا أحــب أن أرى عجــوزًا يلبــس بيجامــة، خاصة لو كانتْ مقلّمة، عادة يفتح منها زرارين، ويبان شــعر صدره فوق عِظام ناتئة ضعيفة، وتفوح منه رائحة قطرة أو مرهم، وعنـد الاقتراب أكثـر تبدو رائحة عرق الجـوارب مختلطة برائحة الأعشــاب التي يغليها المسنين بكثـرة ويشربونها كالينســون والزنجبيل وورق الجوافة. اجتاحتني كل هذه الروائح وأنا عـلى عتبة الغرفة، في البداية، لم ينتبه عم عبده لدخولي، رأيته يمســك أنفه بأصابعه، يتظاهر بأنه يمسكها فقط، بينها كانت إحدى أصابعه داخل أنفه. توجّه ناحيتي بكرســيه المتحرك، فظهرت البيجامة البيــج التي أكرهها، ونظـرًا لنحافتـه الزائدة فقد تدلَّــت البيجامة من الأمام في تموجات وكرمشات، وظهر صدره ككيس مبقَّع من الجلد محشوًا بالعظام.

ببطء تجوّلتْ حولنا قطة كبيرة بطنها منتفخ، تموء بوهن وتستجدي عطف عم عبده بالتمسّح في قدميه.

كان يجلس على كرسيه أبو عَجَل، يحركه بغضب وتوتر، ينظـر دائمًا إليَّ بعين جاحظة ولامعة كالبلي الزجاجي الذي

ألعب به مع الولد حمادة، طلبات عم عبده مكررة ومملة، يطلب ماءً، ثم يشرب نصف الكوب، وبعد دقيقتين يطلب نصفه الآخر، يمسك قطته من رقبتها بعنف غريب، تخربشه فيلقي بها من يده:

ـ أومال فين أمينة؟

ـ في السوق.

يقول وهو على التكشيرة نفسها، يقترب من التليفون الأسود الكبير:

ـ هوَّ مش عايز يرن ليه؟

لا أجد ردًا، فعم عبده هو الوحيد في البيت الذي يملك تليفونًا، قليلًا ما أسمع صوته وأنا في غرفتنا «ترن ترن»، عم عبده ينتظر هذه الترن، ولا أحد يرن، يلتصق بالتليفون، يرفع سمّاعته ويقربها من أذنه، يتأكد من وجود الحرارة ثم يضع السمّاعة مرة أخرى فوق الكتلة السوداء، يتحرك بكرسيه أبو عَجَل الذي أسمع صوته كفأر مزنوق في عُقب باب، أعا. أيِيء، والتليفون لا يرن.

يمرّ الوقت بطيئًا مع عم عبده، وأبي الذي أرسلني في هذه المهمة المجهولة مع عم عبده يلعب الطاولة مع شيخ عجوز على بُعد خمسة أمتار، لماذا لا يجلس هو هنا ويشوف طلبات عم عبده الغريبة؟ يلعب أبي ويترك الجدّ لي.

يحرك عم عبده كُرسيه في اتجاهي، تصنع عجلاته موجة بطيئة وهي تدور، وتحتار ملامحه بين التكشيرة الدائمة ومحاولة الابتسام:

- بالك يا أيمن لو أمينة خلفت لي عيل. لاكون مصور السبوع فيديو.

وأفكّر طويلًا في معنى كلمة فيديو.

كانت أمينة أضخم من أمي بكثير، ولها بطن يمكنه استيعاب طفلين، لا أعرف لماذا ترفض أن تُريح عم عبده المشلول وتضع في بطنها الكبير طفلًا يفرح به، كانت تأتي أحيانًا إلى غرفتنا المقابلة وتحرق لها أمي ورقًا من كراستي كتبه بقلم أحمر شيخ عجوز يزورنا كل فترات طويلة، ثم تجمع الرماد المحروق وتدسّه في جراب صغير، تدخل أمينة الحمّام المشترك بين الغرفتين ثم تخرج ويداها فارغتان،

تتحسس أسفل بطنها وتقول لأمي:

ـ خلاص.

يضع الشيخ العجوز يده على رأسها ويقول كلامًا سريعًا لا أعرف له معنى، ثم تقوم أمينة وتلف طرحتها السوداء حول عنقها، تعود إلى غرفتها قبل أن يستيقظ عم عبده.

أتأمّل شفتي عم عبده، غليظتين وسليمتين، يمكنه أن «يبوس» أمينة وتنتهي المشكلة، يدلق الولد في فمها فينزلق إلى بطنها، ثم تلده بعد أن يجلس بالداخل عدّة أشهر. أمي تقول لي إن الرجل «يبوس» المرأة مرتين فينبت الولد، ومرة واحدة فتصير بنتًا بإذن الله. سأطلب من عم عبده أن يُجرّب هذه الوصفة، لا أعرف لماذا يختلق الكبار دائمًا المشكلات!

يلفّ عم عبده بكرسيه في دائرة صغيرة مرتين حول التليفون الأسود، يرفع السماعة، ولا يسمع «الترن ترن»، يضعها مرة أخرى وتلفّ العجلتين، وأسمع «زيء زيء»، يفكّر قليلًا ثم يقول:

ـ وعـارف كمان. ممكن أعمل السـبوع في الشـارع زي الأفراح. ويفكّر أسمّي الواد يوسف. وهزعق للي يقول لي يا عم عبده. الناس كلها هتقول لي يا أبو يوسف.

يمـرّ الوقت بطيئـا وأنا مسـجون في الغرفـة، أريد أن أنـادي عـلى أبي أو الشـيخ العجـوز ليأخذونـي من هنا، أتمنى أن يمـرّ الولد غطاس أو الولد حمادة ويطلبانني لأمر خطير، لنفعل أشـياء أهم بكثير من الجلوس مع عم عبده، نقف خلف شجرة ونرى الجزّار وهو يذبح بقرة، أو نتفرج عـلى خناقة تتطور حتى تقـع بها مُصيبة، أو نشـاهد رَجُل الجير وهو يُشـعل بالماء الحجر الأبيـض فيخرج منه دخان بلون الحليب.

بدون سابق إنذار شال عم عبده القطة الكبيرة منتفخة البطن وعـصر عنقها، وقبل أن تطولـه مخالبها رماها بقوة من الشِبّاك، ثم نظر لي بشكل مُريب وقال:

ـ القُطّة تخلّف وأنا لأ. سبحان الله. أهي مش هتخلّف، هتسقّط، كفاية عليها عيال.

ويلفّ مرّة أخرى بكُرسـيه «زيي ء زيي ء»، ويشبّ من

الشِّبَّاكَ ليرى القطَّة، وأسمع صوت مواء خافت حزين، ويلتفت إليَّ وفي عينه لمعة، ينتفض ويرتعش وهو يتكلم، يختلط صوته بصوت الكرسي:

ـ هتكون ماتت على بال ما تيجي أمينة من السوق.

يوجّه العجلات ناحية التليفون، يرفع السماعة ويضعها، لا يسمع الصوت الذي ينتظره «ترن ترن»، أنتهز الفرصة وأخطو في اتجاه باب الغرفة، أتركه وأخرج، أجري ولا أنظر خلفي، أسمع صوت عجلات كُرسيه المتحرك تتبعني «زيء زيء»، يُسرِع الصوت، يقترب، «زيء زياع زيء زياعا»، ثم أسمع صوت ارتطام قوي بالأرض.

مشاجرات صغيرة للفاصوليا

اليوم ميعاد عم حسن، لكنه لم يأتِ، أقف قليلًا أمام البئر الصغيرة المحفورة تحت شباكنا، الغطاء كما هو، المشمَّع يلفّ حواف الحُفرة، أذهب لأمي وأسألها:

ـ عم حسن ماجاش ليه؟

كانت تقف أمام الحوض، تغسل الأطباق في صمت، لا تردّ على سؤالي. هي سارحة وأنا أتذكّر..

على وشّ البِركة الصغيرة كنتُ أرى رأسه الأصلع، عم حسن، مربوط بحبل قبل أن يغطس في البئر الصغيرة، كل شهر يأتي مرَّة، يُحزِم وسطه وصدره بحبل كتّان متين،

يعقــده وينزل، أســتمتع حـين أراه وهو يغطــس، يغوص في المــاء الأخضر أمام البيت، تحت شـباكنا بالضبط، يرفع غطاء البئر، تنزعــج الصراصير الكبيرة وتهرب، تجري من حوله ولا يبالي بها، كل ما يشغله متانة العُقدة، يؤمِّن عليها ويغني:

«عوضنا على الله في شقانا وتعبنا

واللي نحبه لاف على غيرنا وتعبنا

قالوا لي سيبه ومن الهموم ارتاح

قلت ازاي أنا لما أسيبه أرتاح

وهوَّ اللي ملا جسمي السليم أجراح»

يلبس بيادة ســوداء برقبة طويلــة، وأفرول جيش مموَّه، يغوص العســكري العجوز في مياه «الطرنش» المقرفة، فلا يبقــى منه إلا رأس أصلع لا يزال يحتفظ بأصداء المواويل. يمســك في يده طرف العُقدة، ثــم يضعه على كتفه متقاطعًا كالوشاح، ويُكمِل الغوص في البئر، سابحًا يروح ويجيء، لا أرض تحــت قدميــه، يضحك، يســألني وأنا واقف على حافة بئره:

ـ طابخين إيه النهارده؟

وأسرح قليلًا قبل أن أرد:

ـ فرخة بريشها.

يضحك عم حسن. كنت في كل مرة أرد عليه بالإجابة نفسها، وكل مرة كان يضحك، فأسأله:

ـ إيه اللي عايم حواليك ده يا عم حسن؟

يهزّ يده في الماء الغامق الثقيل ويبتسم:

ـ فاصوليا.

وأضحك، فقد كنتُ أعرف الإجابة قبل أن أسأله، وبرغم ذلك أنتظر رده وأضحك فور أن يقول «فاصوليا».

وأسميته «عم حسن بتاع الفاصوليا».

يرفع الأسياخ الحديدية من البئر وإليه، ثم يخرج من الحفرة والفاصوليا تتعلّق بملابسه، يذهب كما هو إلى عربته الحديدية الصغيرة التي يجرّها بنفسه، يسحب منها خرطومًا أطول من زلومة الفيل، يضع طرفه عند حافة البئر، ثم يغوص مرة أخرى في بحره الصغير.

يبدأ الخرطوم في سحب المياه الخضراء، تلفّ الفاصوليا في دوامات قبل أن تدخل إلى الزلومة السوداء، وأسأل عم حسن:

ـ هيَّ الفاصوليا بتعمل إيه يا عم حسن؟

يسند كوعيه إلى حافة الدائرة، يمر أبي ويعطيه سيجارة، يشعلها قبل أن يمنحه إياها، ينصرف أبي ولا أرى إلا قدميه وصوته، يشرب عم حسن السيجارة ويبتلع الدخان، ينظِّف رأسه الأصلع ويُملِّس على حاجبيه وشاربه، وينسى سؤالي، فأعيده عليه مرة أخرى:

ـ ليه الفاصوليا بتلف حواليك كده يا عم حسن؟

يسحب نفسًا عميقًا:

ـ بتتخانق.

ـ بتتخانق؟

ـ زي ما بتتخانق جوه بطننا بتتخانق بره كمان.

ـ ولا بيهمك إنها تتخانق قدامك؟

ـ ولا أي حاجة.

«جَمَل حملوه الصعايب لا تعب ولا كلّ

صايم عن الزاد لا اضمضم ولا يوم كل...»

يبتعد صوت عم حسن وينزل بالكامل في المياه، يغيب لثوانٍ ثم يقب، تقلّ المياه الخضراء من حوله، تصل إلى وسطه، ثم يظهر الحبل متقاطعا فوق صدره، ويقول:

ـ عارف يا أيمن؟ أنا مرَّة طلَّعت قرموط صاحي يبجي اتنين كيلو من طرنش أبو محمود. أصله طرنش كبير أوي. البيت خمس أدوار وكُلّه بيصرّف فيه.

ـ وأكلت القرموط؟

ـ آه كلته.

ـ وكان حلو؟

ـ سُكَّر.

ـ بطنك موجعتكش؟

يطبل بقوة على كِرشه الصغير:

ـ ولا أي حاجة.

واسمع صوت أمي، أتحرك في اتجاه الصوت، يعطيني الصوت كوب شاي:

ـ خُد. إدي الشاي لعبد الحليم حافظ بتاعك. معرفش إيه اضمضم اللي هوَّ ماسكهالنا دي؟

أخرجه لعم حسن، وأراه وهو مايزال يسند كوعيه إلى حافة البئر، يُكمِل شُرب السيجارة التي أعطاها له أبي، ينسجم مع الشاي والنفسين الباقيين، يترك الكوب على حوافه الثفل، يرمي فيه عقب السيجارة المشفوط حتى الفلتر، آخذ الكوب من سُكات إلى الخرابة، أهشمّه على أقرب حائط أو ألقيه بحجر، كانت أمي تُخرِج كوب الشاي من البيت ولا تُدخله مرة أخرى، «يحرم عليَّه لمس كوباية شِرب منها بتاع الفاصوليا بتاعك ده»، تقول بجدِّية، وأغيظها بضحكي على طريقة كلامها.

ينزل ليُكمل مُهِمّته. يمتلئ خزَّان العربة الحديد الصغيرة ويفرغ البئر، يخرج عم حسن ويربط الزلومة الجلد بحبل متين، يُعلّقها على مؤخرة العربة، يسحب من

أمامها إبريقًا مُعلَّقًا مليئًا بماء نظيف، يصبّ منه على رأسه وملابسه حتى يزيل كل الفاصوليا العالقة، بعد تنظيف الأفرول وصلعته يسحب زعبوطًا مقلّمًا يكبسه في رأسه، يجرّ العربة وتبدأ عجلتاها في الدوران البطيء.

لا أزال أقف أمام أمي التي تغسل الصحون وأسألها:

ـ عم حسن ماجاش ليه؟

وترد أمي التي كانت تضع جردلًا تحت الحوض وتقتصد جدًا في استخدام المياه:

ـ عمك حسن تعيش انت.

لم أفهم، كانت تعبيرات حزينة مرسومة على وجهها:

ـ غِرق امبارح في طرنش أبو محمود. على العموم أبوك راح يشوف واحد غيره وزمانه جايبه وجاي.

لم أتخيل عم حسن المبتسم دائمًا يغرق في بحر الفاصوليا بهذه السهولة، فهو مُدرّب جيدًا على الغوص، هل فكّ الحبل أم قرضته الصراصير الكثيرة المُنتشرة تحت المشمَّع؟ هل نسي أن يربطه إلى صدره كالوشاح؟

قطع صوت أبي سرحاني:

ـ اتفضل.

يقول لرجل لا أعرفه، يدخل الغريب ويخلع ملابسه في الحمّام، يخرج وهو لا يرتدي أفرول جيش ولا يلبس بيادة سوداء برقبة، بل شبشب وجلابية غامقة مزيّتة،، يقف عند حافة البئر، يكشف عنه غطاءه، يرفع الجلابية عن ساقيه، ينزلها في الحفرة، ثم يرفع جلبابه وينـزل بسرعة، في لمحة خاطفة أرى جزءًا من مؤخرته قبل أن يغطس، يسبح في الماء الأخضر عاريًا بعد أن يترك الجلابية خاوية على حافة البئر، تلف من حوله الفاصوليا في دوامات صغيرة، أقتربُ منه:

ـ انتَ اسمك إيه؟

يقول بصوت ضعيف أسمعه بالكاد:

ـ اسمي إيه؟ أنا عمك فاروق.

ويُكمل السباحة والتسليك دون أن يلتفت إليَّ، ثم يضيف دون أن أكلمه:

ـ بطل يا ابني وَشّ بقى خلينا نشـوف الغُلب اللي احنا فيه.

أقتربُ منه ليسمعني جيدًا:

ـ وإيه اللي بيلف حواليك ده يا عم فاروق؟

يلتفت إليَّ ويقول بقرف:

ـ إيه ده إيه؟ خره.

وأترك عم فاروق وأقوم، يستدعي خيـالي على الفور عم حسـن، أدخل فتقابلنـي أمي وفي يدها كوب الشـاي الذي سيُعدم فور تفريغه من سائله مباشرة:

ـ بعد الراجل ده ما يشرب الشاي عارف هتعمل إيه في الكوباية طبعًا؟

آخذ منها الكوب وأتلكأ في السـير به إلى البئر، أرد بعد أن يتحرك الكوب للأمام ويسحبني خلفه ببطء:

ـ عارف.

مشوار مع اليد

ـ هتمطر؟

أسأله.

ـ باين آه.

يقول أبي ونحن نمشي بجوار قضيب المترو. ثُم يضيف دون أن أسأله:

ـ القضبان فيها كهربة. ممكن تموِّت.

أخاف وأقف:

ـ من غير ما حد يلمسها؟

ـ من غير أي حاجة.

نُكمل المسير، أتابع الشريطين الحديديين بعينيَّ حتى يلتحما عند أبعد نقطة، أخشى الاقتراب منهما، أبتعد قدر استطاعتي، نرى من بعيد خناقة، رجلان يتشاجران وناس ملمومة:

ـ إيعد أحسن حاجة تيجي فينا. الخناقات بيكون فيها شوم وسكاكين.

ـ وسكاكين؟

ـ وحجارة. وممكن البوليس ييجي.

ـ بوليس؟

يلتفت للخناقة:

آه. أومال انتَ فاكر الدنيا إيه؟

ونبتعد، وأقول:

ـ وممكن الواحد يموت؟

ـ ممكن أي واحد يموت.

ـ وأنا كمان؟

ـ بعد الشر عليك.

نبتعد عن الخناقة، وتخفت أصوات المتشاجرين، أنساها بعد أن تخطيناها، ننتقل مع الشوارع من مشاعر إلى مشاعر، ومن حياة إلى حياة. الدنيا بالفعل تُمطر، يهدأ الغبار وتلمع الشوارع بالماء، نستظل بتاندات المحلات، تقع على كتف أبي فضلات عصفور مبلول ومنكمش فوق شجرة، أراها ولا يراها، كان يجتهد في حمايتي من المطر، وكنتُ أفكّر كيف أقول له بأن عصفورًا عملها فوق كتفه. نجلس على قهوة لا رواد فيها إلا الذباب وصبي صغير:

ـ أؤمروا.

يقول الصبي، فيسألني أبي:

ـ تشرب إيه بقى يا سيدي؟

ـ إنتَ هتشرب إيه؟

ـ نعناع.

أصمت، أفكّر، يقول لي وهو يطرقع بإصبعيه للصبي:

ـ أصل النعناع بيروّق البطن.

ـ بيروّقها من إيه؟

ـ من أي حاجة.

ويعيد الصبي الذي ملَّ من الوقفة سؤاله، ويسألني أبي مرة أخرى:

ـ ها. هتشرب إيه.

كانت هي المرة الأولى التي يسألني فيها أحد عن طلبي، الاختيار كان جديدًا، وكان صعبًا:

ـ بيبسي.

طرقعتْ الفتّاحة غطاء الزجاجة، وشربتُ، وأنهى أبي كوب النعناع، تركنا القهوة والخناقة وقضبان المترو، والطريق يمرّ كصفحات كتاب كبير مُلوّن، يغيب مشهد قديم ليحلّ مكانه مشهد مختلف، نطوي شوارع صغيرة وتظهر شوارع أخرى أكبر، حتى نقترب من محطة أتوبيس:

ـ أقف على الرصيف يا أيمن. أصل العربيات سواقينها عُمي.

وأقف على الرصيف، ويمسك يدي جيدًا، وأرى عيالًا أصغر مِنّي يعبرون الشارع دون أن تكون معهم يد كبيرة، ولم أرَ السائقين العُمي.

وأقف، أنتظر مع اليد، ويحاول صاحب اليد أن يقرأ الرقم:

ـ ٩٢٠ ده؟ شوف كده. أصل النظر بقى شيش بيش.

وأشوف، ولا أستطيع قراءة ثلاثة أرقام، لم نأخذ في المدرسة سِوى رقمين فقط، ويتركنا الأتوبيس قبل أن نستقر على رأي، ينفخ أبي الهواء، ويعود إلى رصيف الأمان مرة أخرى.

بعد قليل نرى شبح أتوبيس آخر، وينزل أبي من على الرصيف، ويقرأ، لكن السائق يجري ولا يقف على المحطة، يخفّ في ملابس أبي الذي تجمَّد للحظات قبل أن ينتبه لي، ثم يصعد مرة أخرى على الرصيف. ويطلب منه أحد الواقفين أن يرفع فوقه جوالًا ممتلئًا، ويرفعه أبي، يكاد يقع من فوق كتف الرجل، ويتمسّك أبي بالجوال، يحمله وحده، يضبطه على كتف الرجل فيجري، ينزل من

على الرصيف ويُلقي بنفسه وجواله داخل أتوبيس وقف لثوانٍ، يتبه أبي للرقم، كان هو الأتوبيس الذي ننتظره، لم نلحقه، ويلحق به الرجل صاحب الجوال وآخر شخصين كانا يقفان على المحطة. يشيح أبي بيديه ويسبّ السائق الذي طار بسرعة.

وتفرُغ دكّة المحطة من الناس، فنجلس معًا:

ـ الخير برضه مهم. بيحوش البلا.

ـ آه.

أرد وعيني تُغمِض دون إرادتي.

ـ حصلت معايا مرتين. أعمل الخير من هنا تلاقي ربنا حاش البلا من هنا.

كان يتكلم ولا أسمعه جيدًا، ثم لم أعد أسمعه نهائيًا، وأشعُر بيد كبيرة تضع فوقي غطاءً خفيفًا وتحملني، أبتعد عن الأرض الباردة، وأقترب من صدر يعلو ويهبط، يزداد الدفء، وأرى مشاجرة، وقضبان مترو وفتّاحة بيبسي، تمرّ الأحداث من خلالي، مرئية بسرعة وغير مُرتّبة.

عَالَم فرانشي

أهرب من عمل الواجب المدرسي، أملّ من تسميع درس أبلة فاطمة، لم أحفظ سِوى نصف الكلمات ثم أقرر الخروج من البيت.

طوال الطريق وأنا أتلعثم في حروف كثيرة صعبة النُطق، أسخفها كان حرف الخاء، يتعلَّق في سقف حلقي، لا أحب هذا الحرف بالذات، فهو موجود في الخنفسة وفي الخطر، وأتذكَّر أنه في الخير، ولكنني لا أحبه أيضًا.

يقترب منِّي ولد غريب عن الشارع، يفرِّجني على ما معه من ألعاب، أكياس كازوز نظيفة، مرصوصة

ومربوطـة، بعضهـا مبطّـط ومصنوع منه كـراسي صغيرة معشّـقة، وفي جيوبه كنوز أخرى من البلي، تقبض أصابعه على نحلة يسـتعدّ لرميها أمامه، وفي جيب قميصه الشفّاف مجموعـة ملوَّنة من صـور لممثلات جميـلات، كان يمتلك أنواعًا كثيرة من الكنوز المبهجة، يكفي ذلك لأن يتعلق أي ولد بالذهاب معه إلى آخر الدنيا.

لعبنا أنا والغريب من بعد العصر حتى قُرب المغرب، لم أسأله عن اسمه، ولم يسألني، شغلنا اللعب ولم نشعر بمرور الوقت، البلي يجري والنحلة تدور، وصِوَر الممثلات يشيلها الغريب ويحطّ غيرها على الأرض المُتربة، أكسـب ويخسر، ثم يكسب بعض ما خسره، ولما هدّنا التعب جلسنا وأسند كلّ منا ظهره إلى أقرب حيطة، وسألني الغريب:

ـ وانتَ على كده بقى بتحب مين؟

ـ فرانشي.

كنـتُ أُسـمّع الكلـمات الخاصة بأبلـة فاطمـة، فِراء، كتاب، كُرة، شتاء، نطق لساني هذه الكلمة العجيبة، وقبل أن أوضِّـح للولـد الغريـب مقصدي، وقبـل أن أشرح له

سخافة كلمات واجب أبلة فاطمة؛ قال:

ـ ودي في سنة كام يا شاطر؟

ـ هيَّ مين؟

أسأله فيشعل سيجارة لا تليق بملامحه الطفوليَّة، يسحب نفسًا متأنيًا ويقول:

ـ البت فرانشي.

لم أستطع التراجع، فأكملتُ:

ـ في سنة تانية.

يرفع الغريب السيجارة إلى أعلى وينفخ في نفايتها:

ـ تانية! ودي تعرف ايه دي؟ بس من اسمها كده شكلها بنت ناس كويسين.

نسير ولا أعرف إلى أين نتجه، أسأله:

ـ وعرفت منين؟

يسحب نفَسًا ويُخرج الدخان من فتحتي أنفه:

ـ من اسمها، تقريبًا كده أمها أجنبية، من بلاد برَّة يعني، ويمكن من أمريكا، هُمَّا الأمهات في بلاد برَّة بيحبوا يسموا الأسامي دي.

وأتخيل أم فرانشي التي تكلم عنها الغريب، شعر أشقر وعيون ملونة، وفرانشي تمشي مع أمها وهي ترتدي فستانًا ورديًا قصيرًا له ذيل بكرانيش وأزرار حمراء، أسرح قليلًا قبل أن أتذكَّر بأن فرانشي اختراع وليست إنسانًا، إنها ليست سِوى مجرد حروف تجمّعت بلا ترتيب مُسبق، لا تاريخ لها داخل رأسي، لكنها خرجتْ من ثُقب ضئيل مُضيء، ما إن سُحِب الحرف الأول من اسمها حتى انتهى بجسد صغير وفُستان ملوَّن، بعد أن تشكَّلتْ فرانشي على لساني ووصلت لأذن الغريب؛ كان يجب عليَّ أن أُكمِل.

يسألني:

ـ وبتعمل إيه معاها بقى؟

وأبحثُ في رأسي عن أشياء يمكن أن أفعلها معها:

ـ بنلعب.

يهرش في قفاه:

ـ بس؟

أفكّر، أقول:

ـ وبنجيب عسلية وناكلها مع بعض.

يصمت الغريب، يسحب نفسًا عميقًا من السيجارة ثم يخرجه ببطء:

ـ يا بختك.

ينهي النفس الأخير من السيجارة ويقذف بالعُقب بعيدًا:

ـ ودي ساكنة فين البت دي؟

وأتمادى في تخيّل الاختراع الذي تكتمل تفاصيله في رأسي:

ـ في الشارع اللي ورانا.

يشير بطول ذراعه:

ـ ماهو ده نفس الشارع بتاعي. مش قصدك شارع الحضري؟

ـ آه.

ـ ساكنة في كام الحضري؟

وأتلعثم من جديد:

ـ في ستة وسبعين.

ويلتفت الغريب:

ـ يا ابني دا الحضري آخره أربعة وعشرين. يبقى البت ضحكت عليك. هُمَّا بنات الأجانب كده. مبيجيبوش من الآخر. ويمكن مش ساكنة في الحضري أساسًا.

ونطوي شارعين، وثلاثة، وسبعة، ولا سيرة لنا إلا فرانشي وبيتها وأمها، العِشاء تـؤذّن، والطريق يُظلِم، ويقول الولد الغريب:

ـ تلعب دور بلي؟

ـ بالليل؟

ـ وماله.

ونبدأ في رصّ البلي أمام حُفرة حفرها الغريب بسرعة، وأنشّن عليه بظفري، أصيب الهدف في ثلاث بليات برمية واحدة، لأكثر من مرّة أكسبه، ويصيب الهُزال كيس البلي الذي يحمله، وينتفخ كيس البلي الذي أحمله، وتبدو أمارات القلق على وجه غريمي:

ـ بقول لك إيه. أنا مش مشكلة عندي خسارة البلي، بس عايزك تعرّفني على البت.

ـ البت؟

ـ فرانشي.

وأفكّر في طريقة للهروب من تدبير موعد يليق به، شخص مهزوم يريد أن يعوّض أي مكسب، فيفكّر بأن يحرز هدفًا في اتجاه آخر:

ـ هيَّ بتقابلك فين؟

ـ عند أبو سعودي البقال.

يتجـه نظر الغريب بسرعة إلى دكّان أبو سـعودي، وفي عينه بحثٌ عن شيء ما في الظلام:

ـ قُدّام المحل ولاّ عند الناحية التانية؟

ـ عند الناحية التانية.

ـ لما تقابلها تاني متسألهاش أسئلة كتير، بس ابقى امشي وراها واعرف لي ساكنة فين.

يمشي، وقبل أن يبتلعه الظلام أنادي عليه:

ـ يا...

يلتفت الغريب، يقترب فأسأله:

ـ بس أنا معرفتش اسمك لغاية دلوقتي.

ـ مش مهم اسمي. المهم فرانشي.

أهـزّ رأسي، أتركـه وأمـشي، ثُم أعاود تسـميع كلمات الواجب المدرسي لأبلة فاطمة، فِراء، كتاب، كُرة، شتاء.

الدروس السبعة

أعترف:

بأنني أفعل دائمًا ذلك الشيء المكروه الذي يسمونه كذبًا، أفعله بتلذذ، فلو كنتُ ذاهبًا إلى البقّال وسألتني أمي لقلتُ لها سوف ألعب، ولو قضيتُ اليوم مع حمادة أقول لأبي إنني كنت مع غطّاس، أما إذا فتحت الثلاجة لآكل فأقول فتحتها لأشرب، وإذا فتحتها لأشرب أقول لم أفتحها أصلًا. كنتُ أفاجأ بقولي أشياء لم تحدث. وبسبب التمادي في الكذب كنتُ أجد صعوبة في الفصل بين ما وقع بالفعل؛ وما تخيّلتُ وقوعه، الأحداث كلها تصبّ في الرأس نفسه، رأسي.

اكتشفتُ للكذب مزايا عدّة، أهمها أن الصراحة ليست مُثيرة، أين تكمن الإثارة في أن أعترف مرَّة أخرى بما حدث من قبل؟ في الوقت الذي تكفي فيه مرَّة واحدة لذِكر ما جرى.

قادتني هذه الأحاسيس للارتباك، وأصبحتُ شخصين داخل جسد واحد، أحدهما يظهر أمام الناس كما يريدونه أن يكون، والآخر يفعل ما يشاء بغير حساب للعواقب، وهذا الآخر هو من أريد الحديث عنه الآن.

أعترف:

بأنني لا أعرف شيئًا عن عالم الكبار، ولا أحبه، فهم يعترضون دائمًا على كل ما أفعله، وما يطلبونه منّي لا أهتم وأسمعه، أجد مُتعة في فِعل ما لا يعجبهم، لا أريد أن أحوز رضاهم كما يتوهمون.

كنتُ عندما أقفز وتنكسر مُلّة السرير يضربني أبي:

ـ تنطيطك بوَّظ السرير.

لم أكن أتنطط، والسرير لم «يبوظ»، كنتُ ألعب، والمُلّة

تحتاج لرفعها مرة أخرى، فقط لرفعها، وينتهي الأمر، ولكني لا يمكنني إثبات وجهة نظري، فهذه الكلمة «وجهة نظري» كانت سيئة السمعة، وتعني عند أبي فزلكة فارغة.

يعطيني مصروفًا لا يكفي شيئًا، وإذا أخذت ما يكفيني من جيب بنطلونه دون علمه يعاقبني، يضربني بيده الكبيرة، أو يحرمني يومين من المصروف. وتعلمت الدرس الأول: أن الصحّ عند الكبار هو ما يريدونه فقط، أمّا ما يريده الصّغار فهو خطأ واضح لا يستحق عناء التفكير.

تراقِب أمي تصرفاتي، ويشجعها أبي على ذلك، لا أعرف لماذا كانا يراقباني ولا يسمحان لي بمراقبتهما، ولأنني أعرف عنهما ذلك؛ فقد كنت أراقبهما دون أن يعرفا. ولاحظت بعض الأشياء، كانتْ أمي دائمًا تقول لأبي بأنها على لحم بطنها من ساعة ما راح الشُغل، رغم أنها كانتْ تأكل مرتين بطريقة لا يكتشفها أحد، تمدّ المقصوصة في حلّة الأرز وتكشط بها ما يملأ عشر ملاعق، فيبدو على الحلّة أنها لا تزال بختم البخار، أو تقضم من كل قطعة

لحم سلخة صغيرة فتبدو القطع الثلاثة كما هي، وتشرب شايًا كثيرًا سُكّرًا زيادة، وعندما تقول له بأنها تنتظره دون أن تضع لقمة في فمها يصدّقها، فيعطيها من منابه قطعة. يُقسِم أن تأكلها، تتمنَّع، ثم تأكلها.

أمّا أبي، فيكذب أكثر منها، يقول لأقاربي بأنه لا ينام في اليوم سِوى ساعتين فقط، وهو ينام نصف اليوم، يقول إنه نوم قلق، وأسمعه يُشخّر بصوت يسمعه السائرون في الشارع. وتعلّمتُ بسرعة الدرس الثاني: أن الكبار يُحبّون دائمًا أن يبدو كمخلوقات خارقة أمام صِغارهم.

كنتُ كلما قلتُ لأبي أو أمي: «عن نفسي» يضحكان، لا أعرف في الحقيقة لماذا يضحكان؟ ينظران فقط لسنواتي الصغيرة، لا يعرفان شيئًا عن البذور التي تنمو في رأسي، أفعال ومشاعر لا أجد لها أداة للتعبير، لا تعجبني الكلمات المتداولة، لا أراها تناسب ما في رأسي. شيءٌ ما بداخلي كان يرفض ما يشغلهم من موضوعات، فحتى الآن لا أعرف لماذا كان أبي يضع عينًا سحرية على باب غرفتنا، لماذا يراها أمرًا طبيعيًا يفعله بنَفسٍ راضية؟ لم أرَ لصا واحدًا سرق

مـن قبل أي شيء مـن غرفتنا الصغيرة، أو مـن البيت، أو حتـى مـن الشـارع كلـه. وبرغم ذلـك فقد كنت أسـمع أحاديـث جانبيـة كثـيرة تُعيـد وتزيد في سـيرة اللصوص الذين ينطّون على البيوت، تكثر الحكايات عن أشـخاص أقويـاء يتسـللون كالأطياف دون أن يراهـم أحد، يقتلون الرجال ويجرحـون الأطفال ويخطفون النسـاء، وتعلّمت الـدرس الثالث: أن الكبار يُصدِّقـون كلام الآخرين أكثر مما يُصدِّقون مشاعرهم الحقيقية.

لا أعـرف لمـاذا كان أبي يتخيَّل أشـياء لم تحدث، وأمي كذلـك، كانت تُصدّق بـأن الكتاكيت الصغـيرة الصفراء يمكنهـا أن تتحـول أثناء الليل إلى بسط، لا يحدث ذلك إلا عـلى لسـان أمينة زوجـة عم عبده، لـو قالت لهـا أمينة إن الكتاكيـت تتحوَّل في الليل إلى أفيال فسـتصدّقها أيضًا. لم تكن أمي تشكّ للحظة بأن العيال التوائم تتجوّل أرواحهم أثناء النوم، تسـكن جسدي قطتين من القطط الكثيرة التي يربيها عم عبده زوج أمينة، ولم تُكذِّب بأن عم عبده نفسـه ظلّ في بطن أمه سنتين حتى عاد أبوه من رحلته بالجمل إلى

الحجـاز، وتعلّمتُ الدرس الرابـع: أن الكبار لا يعترفون إلا بخرافاتهم هـم، أما خرافاتنا نحن فهي «عقل عيال».

في الصباح تقول لي أمي:

ـ امشي عدل علشان متتأخرش وانتَ بتجيب الفول.

وأتأخـر، فالطبـق وهو فارغ يأخذ وقتًا أقل في السـير، ولا يحلى للعيال أصحابي لعب الكُرة إلا وأنا عائد بالفول، أتابـع درجة ميل الزيت الذي يرقـص على حواف الطبق، أتفـرج ولا أحسـب الوقـت الـذي يمـر، وأعـود لأمي متأخـرًا، أصارحها بـما حدث فتضربنـي، وعندما أكذب عليها وأخترع قصـة خيالية من دماغـي تُقبّلني وتنفحني قرشًـا كامـلًا، ولم تنسَ مرة واحـدة أن تُذكّرني بأن الرجل ضحك عليّ لأنني نسيت أن أقول له «اتوصّى»، في الحقيقة لم أكـن أفهم معنى واضحًا للكلمة، فـكل العيال تقول له «اتـوصّى» ويعطينا جميعًا الكمية نفسـها، مثل بعض تمامًا، أقول لهـا: «والنعمة قلت له يتوصّى»، فتبحث عن سـبب آخر تضربني من أجله، وأُدرك أن رغبتها في ضربي تسـبق سبب الضرب.

في المساء يقول لي أبي:

ـ امشي عدل علشان متتأخرش وانتَ بتجيب سجاير.

وأتأخر، فأبو شربات يضع تليفزيونه الكبير في الشارع، أرى فيه نيللي أحلى منها في تليفزيون أم نشأت. وأبي نفسه يقف أحيانًا أكثر من ساعة يتفرج على سُعاد حسني في فيلم خلي بالك من زوزو في تليفزيون أبو شربات، وتعلّمت الدرس الخامس: أن كلمة امشي عدل ليس معناها السير في خط مستقيم، ولكنها تعني أشياء غير معروفة تتجوّل فقط في عقول الكبار، لا يمكن للصغار أن يستوعبوها بسهولة.

تصحيني أمي بسبب «المدعوقة» التي يسمونها مدرسة، تضربني بسبب وصفي للمدرسة بهذه الكلمة، ولا تضرب أبي لأنه يقول على الشُغل «الزفت»، تزغدني وأنا سابح في أحلام لذيذة، فأقوم نصف نائم، نصف تائه، أتعثّر في الأحذية والشباشب حتى أصل إلى باب الحمام، أبي بالداخل، أقف على الباب شبه نعسان، بطني تُطبّل وفيها مزيكة حسب الله: «مزنوق» أقول لأمي، «الصبر

يا حبيبي» يصلني صوتها وهي تدفع الأنفاس إلى الكبّاس، الباجـور يـوشّ ومـن فوقـه صفيحـة مـاء، وأبي جالس براحته، تطال البرودة بطني بسـبب البرد، وصداع بسبب قلة النـوم، وأبي جالس براحته، وأمي تُعطيه صفيحة المياه السـاخنة من فتحة البـاب، أرى ذراعه وجـزء من كتفه،: «هوَّ أنا هسـتناه لغاية ما يسـتحمّى؟» أسـأل أمي: «روح نام شويّة»، وأمسح وجهي بكفّي قبل أن أقول لها: «طيب وصحيتينـي ليه دلوقتي؟ تزغر ولا ترد، وقبل أن أسرح في النوم تزغدني اليد نفسـها من جديـد: «قوم. أبوك خرج». وتعلّمت الدرس السادس: أن إرادتي الحقيقية لا علاقة لها بما أريد، بل بما يريدون.

وبناء على كل ما سـبق فقد تعلّمت الدرس السابع: أن كل شيء في حيـاة الكبار مرتبط بأرقام معينة، فالسـموات طبقات سـبع، والأراضي طبقات سـبع، والأسبوع سبعة أيـام، لذا؛ فلا يجوز أبدًا أن تصبح الـدروس التي تعلّمتها ستة، ولكن لابد أن تكون سبعة.

النوم

لا أعرف لماذا يستغرق أبي كل هذا الوقت من أجل أن ينام، يتقلَّب كثيرًا على سريره، يلفّ جسده يمينًا ويسارًا، يضع المخدَّة فوق رأسه أو تحت خدِّه، يلقيها بطول ذراعه، وأيضًا لا ينام.

وهل يحتاج إغماض العين إلى كل هذا المجهود؟

تنام أمي ملاصقة للحائط، وأبي بجوارها على حافة السرير، هي تغطّ وهو يتقلَّب، وأنا على سريري الصغير أحاول أن أبقى صاحيًا حتى أرى أبي عندما يباغته النوم، كانت عيني مفتوحة تنظر لسقف الغُرفة، أتابع الذباب

الذي ينام عكس الجاذبية، ثابت على وضعه، يتناثر سـواده الواضح على السقف الأبيض.

بعـد قليـل أفقد القـدرة على الحـوار الداخـلي، وعلى الـكلام، يتوقَّف التفكير في رأسي، يغيب أبي عن المشـهد، وأمي والسرير، يخفت بريق السقف ويهجره الذباب.

لا أدري فيـما كنتُ أُفكِّر مُنذ قليل، أراها وحدها تخرج إليَّ بشـعرها الكبـير ووجهها المحروق، شربات، فسـتانها أصفـر جميل، لكن وجهها محروق، لا تظهـر فيه ملامح، هل جاءت لترعبني فقط، وماذا ستستفيد شربات بنت أبو شربـات لو تملّكني الرعب؟ كانـت ضربات قلبي ضعيفة مثل صوت عقرب الثواني في سـاعة الحائـط، حاولتُ أن أصدّ الفسـتان الأصفر وأوقف تقدّمه نحوي فلم أستطع، كان هشًّـا مثل غزل البنـات، لم تكن لي يد قويَّة كتلك التي أدفع بها حمادة صاحبي أثناء لعبنا، ولم تكن شربات جسـمًا يمكنني أن أحدّد مكانه بالضبط. والمشـهد بالكامل يدور بيننا على ورقة فَزَّاز، تظهر رسـوماتها من فوق ومن تحت، والرسـومات كائنـات صغيرة غـير واضحـة التفاصيل،

قـرّرتُ ألّا أخاف من شربات، فسـمعتُ صوت ضربات قلبـي تعلو مثـل دق طبل، رأيـتُ شربات تبتعـد، تغيب بوجههـا المحو منـه الملامـح، وأنفض قدمي فـأرى أبي مايزال يحاول النوم، ولا يستطيع.

شربـات ماتت محروقـة، لم يرهـا أحد وهـي محروقة، لكـن حكاياتهـا لم تنقطع منذ ماتت، وهـي التي لم يذكرها أحـد عندما كانت عـلى قيد الحياة، وقـت الحادثة كنتُ في المدرسـة، وقبـل أن أدخـل إلى الشـارع سـمعت صراخًا وعويلًا، هجر كل الناس شـققهم وتجمعـوا أمام بيت أبو شربات، تسربت من بينهم أمام عيني بطانية ملفوفة تمشي وحدها، رموا البطانية على سيارة نصف نقل وجرت النساء خلف السيارة، ودخلت أنا بيتنا ونمت. ثم استيقظتُ على الحكايات التي ملأتْ الشـارع، رسـمتُ صورة لشربات المحروقة كما صوّرتها هذه الحكايات، وتأكّدتُ أن الحادث فظيـع لأن أبو شربات غطـى تليفزيونه الـ NEC بكسـوة الكنبة لأكثر من سنة.

ومنذ ذلك اليـوم وأنا أحلم بشربـات المحروقة، رغم أنني لم أرها أبدًا وهي محروقة.

تقلَّب أبي على السرير من جديد، ذراع أمي تلفّ حول بطنه وهي نائمة، لمحني بطرف عينه وأدرك أنني ما أزال صاحيًا، رفع ذراعها برفق وأعاده إلى جنبها، شبَّك أصابعه وأراح ذراعيه على بطنه، قامتْ أمي وقفزتْ من فوق أبي إلى الأرض، مشت ببطء قاصدة الحمام، وسمعتُ صوت أبي ضعيفًا:

ـ هاتي بُق ميَّه وانتي جايه.

لم ترد أمي، مشت في طريقها كأن لم تسمع شيئًا، لكنها عادت بعد قليل وهي تحمل كوب ماء نصفه مدلوق، لم يرَ أبي النصف الفارغ، وربما لم يرَ كذلك النصف الملآن، اعتدل وشرب رشفة واحدة:

ـ ماتخش انتَ جوَّه يا محمود.

ينظر لها بعين حمراء كالدم:

ـ أنا مبعرفش أنام إلا هنا يا نادية.

في النهار لم يكن أيٌّ منهما ينادي الآخر باسمه.

قفزتْ أمي مرة أخرى من فوق أبي ونامت بجوار

الحيطة، قرصته في فخذه وهي تنط، سحب أبي بطانية ولفّ في اتجاه سريري، ولفّت أمي في الاتجاه نفسه، رأس أبي يليه رأس آخر، وجاء الصوت من الرأس الآخر خفيضًا:

ـ ماتخش انتَ جوّه يا محمود.

دون كلام أخذ أبي مكان أمي، وخرجتْ هي إلى حافة السرير، لا أعرف لماذا رفض طلبها منذ قليل، ولماذا وافق الآن! العيون الأربعة تحملق فيَّ، أشعر بجسدي هامدًا، وأرى الذباب فوق السقف يرقص ويتناقص عدده، بعد قليل يختفي السقف، ويطير الذباب، وأعود للمكان الذي كنتُ فيه منذ قليل، بيت أبو شربات، وأرى شربات، لكن هذه المرة قبل أن تحترق، يجذبني من ذراعي عيّل يشبه سلطان صاحبي ابن سرياقوسي، أجري خلفه ولا أعرف ماذا قال لي لكي أتبعه، يقلب حلّة ألومنيوم ويقف عليها، يثبت قليلًا ثم يهتزّ ويلزق صدره في الجِدار، ينزل ويطلب مني الصعود على الحلّة، أطلع عليها ولا أرى شيئًا إلا حديد الشبّاك الصغير، يطلب مِنّي سلطان النزول، أنزل، يضع فوق الحلة حجر رصيف كبير، ويقول لي «اطلع

يا قزعة»، وأطلع، وأبص من الشبّاك، شربات تستحم، يغمرها الصابون الأبيض، وتغني «يا بنت السلطان»، وأرى الحلّة والحجر يعلوان ويهبطان، الأرض من تحت قدميَّ تهتزّ بقوة، واثنان في مكان ما يتمسكّان ببعضهما البعض، فوق سرير خيالي، كبير وأبيض، وقبل أن أتأمّل ملامحهما يدفعني سلطان من فوق الحجر ويطلع هو، أقع في المنور، وأتألم.

تغيب حلاوة شربات بنت أبو شربات ويختفي عنف سلطان ابن سرياقوسي، وأرى أبي راقدًا على حافة السرير، وأمي بجوار الحيطة، البطانية مُكوَّمة تحت أقدامهما، ومُلّة السرير واقع منها لوح.

الصور

مـرت الأيام الأولى من إجـازة آخر الســنة كئيبة حتى صالحني حمـادة ابن أم حمـادة، لا أعرف لماذا كنـا كلنا، أنا والعيـال أصحـابي، نقـول «أم حمادة» بعد حمـادة مباشرة! وكأنها كمالة لاسـمه، فلو قلنا حمادة فقط وصمتنا، حسـبنا السـامع نقصـد حمـادة آخـر غـير صاحبنا الـذي خرمتُ بمسمار النحلة مِشط رِجله.

مللـتُ من لعـب البلي، وبعـد أن خرم مسـمار النحلة رِجل حمادة هدّدني أبي:

ـ لو جبت النحلة دي البيت تاني هخرم بها دماغك.

خفتُ من كلامه، ولم أشترِ النحلة مرة أخرى، لم يعد لي تسلية إلا اللف في الشوارع والفرجة على الناس.

في مساء اليوم نفسه سمعت اسمي بصوت حمادة، لابد أنه جاء يصالحني لكي يُقنع أبي بالتراجع عن خرم دماغي بالنحلة، ولكنه صالحني لسبب آخر لا علاقة له بالنحلة ولا بأبي. اقترب مني وأنا أشوط الطوب في الشارع ومدّ إصبعه الخنصر بعد أن بصق عليه.

ـ تصالح؟

ففعلت مثله وتعانق إصبعانا:

ـ أصالح.

ثُم يفرد حمادة لوح كرتون مليء بصور مستطيلة لممثلين لا أعرف معظمهم، اللوح ملوّن وفيه مربعات صغيرة، كل مربع به صورة لممثل أو لاعب كرة، يُخرج حمادة من جيبه مقصًا صغيرًا ويبدأ في قصّ اللوح الكبير إلى قِطع في حجم علبة كبريت، الألوان باهتة والملامح في الصور مهزوزة قليلًا. يرصّ حمادة جميع الصور فوق كفّه ويربطها

بأستك، يُدخل المقص إلى جيبه ويُخرِج من الجيب الآخر قرشًا أبيض، يرفّه عاليًا بإبهامه ثم يستقبله بكفه:

ـ هنلعب كده. رفّة. بس لازم يكون معاك صور.

يضع حمادة العقبة أمام خيالي قبل أن أفرح بألوان الصور وتوقّع المكسب، فأسأله وعيني على الممثلين الملونين الراقدين في كفّه:

ـ بكام؟

ـ بشلن.

كانت رؤية الشلن أندر من رؤية رأس الأستاذ عبد الدايم مدرس اللغة العربية الذي يلبس الكاسكتة، أصابتني خيبة لم تدم طويلًا، فقد حلّتْ أمي المشكلة. مدت يدها في عبّها وأخرجت الشلن في كرم نُحسد عليه. عندما أخبرتها بأن النِدّ هو حمادة لم تمانع، فقد كانت تكره أم حمادة لأنها تشتري اللحم من الجزّار ونشتريه نحن من الجمعيَّة.

نذهب أنا وحمادة لنشتري اللوح من أم شربات.

حصلتُ عليه أخيرًا، حيزت لي الدنيا وتحققتْ كل أحلامي. انتهتْ جميع مشاكلي، لم أكن أعلم بأنها بدأتْ.

أخذتُ المقص من حمادة وبدأت أفعل مثلما فعل في صِوَرِه، وقبل أن نلعب بقرشه الأبيض سمعنا صوت أمه:

ـ أبوك جه. تعالى إتغدا الأول. وِشَّك بقى قد الفص من الجري. بلا صِور بلا زفت.

في ثوانٍ، كان حمادة فص ملح وذاب. لم يعد أمامي إلا أن ألاعب عيال لا أعرفهم.

مرَّت ساعة، كسبت فيها صورًا وخسرت صورًا، لكن العدد زاد كثيرًا عن اللوح الخام، أصبح بحوزتي أربعون صورة بعد أن كانت أربعًا وعشرين.

خرج حمادة وفي يده برتقالة مأكولٌ نصفها:

ـ ياللا نكمل لِعب.

فرَّجت حمادة على شطارتي وصوري التي كسبتها، كنت أحب أن أغيظه كما تُحب أمي أن تغيظ أمه، تأمَّل الصور وفمه مليء بفصوص البرتقال:

ـ الصور اللي معاك دي ملهاش لازمة.

فقلت وأنا أفرد الصور الكثيرة أمامه:

ـ دول أربعين صورة يا حمادة.

مسح ذقنه من عصير البرتقال وقال:

ـ ملهمش أي لازمة. علشان كلهم صور محمود مرسي وأم كلثوم وفريد الأطرش. والعيال خدوا منك صور عادل إمام وسهير رمزي ونجلاء فتحي.

لما بدا عليَّ عدم الفهم شرح حمادة وجهة نظره من البداية:

ـ بُص يا سيدي. الصور دي مش بالعدد، يعني صورة سهير رمزي بعشر صور من بتوع فريد الأطرش، وصورة لعادل إمام بخمسة من بتوع أم كلثوم، لكن بقى لو معاك صورة لنجلاء فتحي أو ميرفت أمين تبقى بعشرين صورة لمحمود مرسي.

لا أعرف من الذي وضع هذه القوانين. كانت تبدو شيئًا خاصًا بشارعنا فقط، وربما في شارع آخر سيعلو نجم

محمود مرسي على نجم نجلاء فتحي:

ـ بس أبويا بيقول إن محمود مرسي ممثل كويس.

رد حمادة بعد أن ضاقت ملامحه بكلامي:

ـ هوَّ أنا هتجوزه. افهم يا حمار. العيال بتاخد صور نجلاء فتحي وسهير رمزي علشان تحطها تحت المخدة فيحلموا بيهم. عاوز انتَ بقى تحلم بمحمود مرسي انتَ حُرّ.

فقدتُ الصور الكثيرة في يدي قيمتها، كأنها عُملة تم إبطالها، وانتابتني خيبة مُرَّة. ولكنني تذكرت شيئًا، فرفعتُ رأسي في مواجهة حمادة:

ـ طيب وبيعملوا إيه بعادل إمام بقى؟

تنهد حمادة ونفد صبره:

ـ يا عبيط. وهمَّا العيال هيعملوا إيه بنجلاء وميرفت من غير عادل إمام؟

تظاهرتُ بالفهم فأكمَل:

ـ العيال ميقدروش يعملوا حاجة علشان لسه صغيرين، يقوم عادل بقى يعمل حاجة..

ـ عادل مين؟

ـ عادل إمام يا ابني، فيتفرجوا على الاتنين مع بعض. فهمت؟

وقبل أن أترك حمادة يجذبني من ذراعي ويضيف:

ـ لما تبقى في سنة خامسة زيي هجيب لك كوتشينة. عارفها؟

ـ طبعًا عارفها. أبويا بيلعب بها مع أصحابه.

مرَّتْ فترة صمت، لم يرد حمادة، ثم ابتسم وهو يقول:

ـ الكوتشينة اللي بكلمك عنها دي فيها صور أحلى.

ـ أحلى من صور نجلاء فتحي؟

وينخفض صوت حمادة فجأة:

ـ أحلى.

وأقلّب الصور في يدي، يخفّ وزنها وتقلّ قيمتها،

أملك ولا أحكم، أتأمل الوجوه الملونة الصغيرة على أمل إعطاء قيمة جديدة لها، ومع الغروب تخفت الصور والألوان، فأبحث عن لعبة جديدة لا يكون شريكي فيها حمادة ابن أم حمادة.

منديل كاروهات بيج

أبي هو الوحيد في العالم الذي مايزال يستخدم مناديل القماش المحلاوي، هكذا يُهيّأ لي، فأمي تقرف من غسلها، ولا تعترف له بذلك، تنشرها على الحبل بأصابع متقززة، وغالبًا يقع المنديل أثناء نشره، وغالبًا لا يبحث عنه في الشارع أو في المنور أحدٌ غيري، أعيده إلى أصابعها مرة أخرى.

هذه المرَّة كنَّا بين المغرب والعِشاء، تنشر أمي الرفايع في المنْوَر، الجوارب والمناديل والطواقي الشبيكة:

ـ انزل يا أيمن بسرعة هات المنديل الكارو البيج.

وأنـزل مُسرعًـا بدافع سـماع الأمر، أثنـاء اندفاعي إلى السـلم أتوقّـف، فالجملة التـي قالتها أمـي لا أعرف منها معنـى كلمتين، الكارو والبيج، عُدتُ مُسرعًا كي لا أتلقى جزاءً سريعًا يفقدني كرامتي أمام الواد حمادة ابن أم حمادة:

ـ يعني إيه كارو؟ ويعني إيه بيج؟

تبتلع أمي غضبها وتضغط أسنانها:

ـ كارو يعنـي مربّعـات، وبيج زي القميـص اللي انتَ لابسه، بس المنديل أغمق شويّة.

وعرفـتُ أن لـون القميص الـذي أرتديه بيـج فاتح، وأن هـذا البيج هو لون الطحينة التـي توضع على الفول، وعرفـتُ أيضًا أن الكارو تعني المربعات. نزلت مُسرعًا في طريقي إلى المنور، قفزت السـلالم زوجيّة وثلاثيّة، وصلت إلى هـدفي، أرض المنـور، الإضاءة شـاحبة، وأنـا أتعثّر في طـوب وأكيـاس وبقايـا أوراق، بعـد دقائق قليلـة تبينتُ موضـع قدميّ وكفـيّ، وظهرت أمامي بعـض المفقودات عـلى الأرض، منها أشـياء رفيعة وقعت مـن أمي دون أن تـدري، أو كانـت تدري ولكنهـا لم تجدني أمامها. لمسـتُ

يدي فردتي جوارب مختلفتين، لم تكن فيهما ألوان قريبة من البيج. تأخرتُ فسمعتُ صوت أمي:

ـ لقيتها؟

يبحث لساني عن رد، وتبحث يدي عن أي شيء بيج:

ـ لسَّه.

توقفتُ لحظة عن البحث وسألت نفسي: هل وقع شيءٌ من أمي بالفعل؟ ربما تُريد أن تقرفني وخلاص، لم يكن أمامي إلا استمرار البحث عن المنديل المحلاوي البيج في ظلمات المنور الضيق.

غاصت يدي في لزوجة أثناء البحث. وشممتُ رائحة كريهة. في التوقيت نفسه سمعت صوت أمي يرن في فضاء المنور:

ـ حاسب وانت بتدوَّر. عندك ماسورة مجاري.

جاء تحذيرها متأخرًا.

وعرفت شيئًا آخر لا علاقة له بمنديل أبي، أن ماسورة المجاري تجري عبر المنور، وأن الواحد لازم يحاسب وهو

قريب منها، وأسمع الصوت نفسه:

ـ ها لقيته؟

وأمِلُّ من السؤال وأنا أبحث في مُربَّع ضيق ومُظلِم ومُقرِف، وأعاود البحث فأرى خنفسة تخرج من تحت الأرض، أتابعها وهي تسير ببطء، أقدامها نحيلة كالفتل، تتحرك الخيوط السوداء وتتشابك، كنتُ شغوفًا بمعرفة أين ستذهب هذه الحشرة المظلمة. قطع صوت أمي سرحاني للمرة الثالثة في دقيقتين:

ـ دوَّر كويس يا أيمن.

لم أهتم هذه المرَّة بصوتها، ولم أهتم كذلك بأوراق صغيرة سقطت فوق رأسي، ولا بقشر ترمس وقع في قفايا. لم أكن أرى إلا الخنفسة، أوسِّع لها الطريق لأرى ماذا ستفعل بعد أن ترى الحيطة أمامها، وأقلِّب الأرض بيدي لأبدو أمام أمي شخصًا يبحث عن منديل أبيه المحلاوي البيج.

ويغيب صوت أمي، وأسمع صوت أم حمادة:

ـ وسَّع ياللي في المنور هدلق ميَّه.

وأجـرى من المنـور مُسرعًا، تحـرَّك لســان أم حمادة في نفـس توقيـت ميـل الطبق المـليء بميـاه الغسـيل، طالت ملابــسي نُقط محـدودة من المـاء والصابـون، لكنني كنت أفكر في حال الخنفســة التي غمرتْها كل هذه المياه، وعُدت إلى المنور ورأيتُ الخنفســة ماتزال في طريقها تسـير، وكأن مياهًا ألقتها أم حمادة لم تكن، بل كأن المياه أنعشتْ الخنفسة فأسرعت تشق أكوامًا من الأشـياء الصغيرة، أنهت أرض المنور وأكملت المسير فوق الحيطة.

أثنــاء إزالة بُقع الصابون عن ملابسي ســمعت صوت أمينة زوجة عم عبده:

ـ خلي بالك منها. إوعى حد يفكَّها.

قالــت وهي تربط معـزة ضئيلة في وتـد بالمنور، كانت المعزة صغيرة ورقيقة، أغلب لونها أسـود، وبعضه بيج، لم أرد على كلماتها بالرفض أو بالإيجاب، كنتُ فقط أقارن بين الألوان وأبحث عن اللون البيج في كل ما حولي.

ظهري وجعني من طول الانحناء، لم أجد منديلًا يشبه المعزة، ولو طلعت من دونه سأتلقى من الشتائم ما يساوي عشرين منديلًا محلاويًا، وربما طالتني صفعة طائشة فوق البيعة.

أخذتُ أقلّب في المنور وأنا لا أرى الأرض جيدًا، شِلتُ ورقًا وأكياسًا وطلع في يدي حذاء أحمر لعروسة لعبة، وسرنجة ملفوفة بخيوط متشابكة. ثم أرى الخنفسة تعود ومعها ذريّة من خنافس صغيرة، يسير السِرب ببطء، يقطع المياه المتسخة ويصل إلى حافة المنور، تمر العائلة السوداء من أمام المعزة الصغيرة، ثُم تنزل الخنفسة القائدة وتترك المنور نهائيًا، تقف وتنتظر أولادها فوق مُربع قُماش، تجري الخنافس وتلتفّ حول أمها، كلهم يقفون على المُربع القماشي الصغير، مُربعات بيج تقطعها خطوط نحيلة كأنها مرسومة بقلم رصاص.

أسمع صوت أمي ولا أهتم بما تقول، فقد وجدتُ المنديل.

أخ

ـ انتِ ليه مخلفتيليش أخ أو أخت؟

أسأل أمي.

ـ كل العيال دول اخواتك.

تُجيب على سؤالي وهي تشير بيدها إلى الشارع، تجلس إلى جوارها عمتي أم كلثوم، وتشرح ما لم تقله لي أمي:

ـ أمك شايلة بيت الوِلْد.

لم أفهم، خرجتُ إلى الشارع وأنا أبحث عن العيال الذين قالت أمي عنهم إنهم إخوتي، ولكني توقفت في نصف الشارع، العيال يمرون من حولي ولا أراهم،

فقد كنتُ منشغلًا بما قالته أمي، والعيال منشغلون بإخوة غيري، أحاول أن أتذكر كيف يسير يومهم، فهُم بعد اللعب يذهبون ليناموا عند أمهاتهم وآبائهم، لماذا لا ينامون معي في غرفتي ما داموا إخوتي؟

بدأت أنسج أخًا لي في رأسي فقط، وأتخيَّل ملامحه تشبهني، أكبر منِّي بسنة، صوته أخشن مني وأنعم من صوت أبي، بعد قليل تشكّلت ملامح أخي أكثر، نبتت له تصرفات وانفعالات، يُخلِّصني من أيدي العيال لو أرادوا ضربي، ويضربني لو لم أسمع كلامه، أشتكي لأمي منه، وأتلذّذ وأنا أراها تضربه.

بقي شيءٌ مهمٌ لكي تكتمل الصورة، أن أختار له اسمًا.

كان اسم منصور مناسبًا، الأخ الكبير لابد أن يكون له اسمٌ مُهابٌ، فأكبر العيال في شارعنا اسمه منصور، هو الوحيد الذي يمكن أن يسترد لنا الكرة من دكان أبو سعودي العجوز عندما تسقط في برميل الجاز، وهو الوحيد الذي يمكن أن يقرضني شلنًا وأردّه له على أقساط أو أعيده إليه من مكسب لعب البلي.

بقى شيءٌ آخر. أن أتخيّل له ملابس تليق بأخ كبير، عندما تصغر على مقاسه آخذها أنا مثلما يفعل الولد حمادة مع أخيه محمود، وعندما نذهب لاستديو التصوير سيقف منصور ويضع يده الكبيرة فوق كتفي، ويطلب مني عدم الضحك حتى يلتقط المصوّر صورة، سيتم تكبيرها فيما بعد ووضعها في الصالة مثلما فعل أبي مع عمي مُراد.

لكن أين سينام منصور؟ سأطلب من أبي أن يشتري له سريرًا، فلو لم يفعل ذلك سيشاركني منصور في سريري. وأشرط عليه ألّا يسحب البطانية من فوقي ليلفّها حوله. وأين سيذاكر منصور؟ لابد أن يشتري له أبي مكتبًا غير مكتبي الصغير، وأشرط عليه ألّا يأخذ أقلامي الملوّنة أو يكتب اسمه فوق أحد كراريسي. عندما نتشاجر لن أضربه «جامد».

ولكنني نسيت شيئًا مهمًا، كيف ستلد أمي منصور أكبر مني وأنا قد بلغت سبع سنوات؟ لابد أن تلد لي أخًا أصغر منّي، ذلك لأنني قد وُلِدتُ وانتهى الأمر، وفي هذه الحالة لن يليق اسم منصور على أخي الأصغر، لابد سيكون

شـادي أو تامر، ويُصبح عليَّ أن أدافع عنه في المشاجرات، سـيكون صوتـه أنعـم من صـوتي وصوت أبي، سـأعطيه ملابسي التي ضاق مقاسـها، ويصبح عليَّ أنا الذهاب معه إلى المصوّر والحلاق.

أثناء سرحـاني في اختيار مواصفـات الأخ؛ تعثَّرتُ في طوبـة، ورأيـت الولد منصـور يضحك من بعيد ويشـير بذراعه إلى قدمي، وإصبعـي الكبير ينزف من عند إظفره، وأنا أحجل على قدم واحدة وأقول:

«أخ»!

شارع البراميل الخشبية

أترك الميدان والشارع الرئيسي، أمرّ على دكاكين فقيرة وصغيرة، لا أدخل شارعنا إلا من ناحيتها، ألفّ وأدور وأتحايل على الطريق لكي تعبرني هذه الرائحة الجذّابة. رائحة محتويات البراميل الخشبية.

يقف رجل بكرش كبير، يضع على البرميل لوح خشبي وفي يده «مقشطة» يساوي بها اللفت والجزر، ثم يُخرّطها ويحوّلها إلى قطع مشرشرة، فتقع من تلقاء نفسها في البرميل المليء بالماء والملح والشطّة، الشارع متّسخ وغير مُسفلت، والرجل يلبس بوتًا بلاستيكيًا طويلًا في قدميه،

البوت أسود والملابس ملبّدة بالأملاح والأتربة، أرى البرميل وهو يُملأ في أقل من ساعة، أتأخر عن دروسي كي أرى أصابع الرجل وهي تتحرك بسرعة، وكأنه يُخرِّطها هي. وأتلقى عبر الهواء الرائحة التي أفضّلها.

أعود إلى البيت، أطلب من أمي خمسة تعريفة، وتقول «منين؟»، وأعاود الطلب فتقول «طيب شويّة كده»، أعاود وأعاود حتى تستجيب، تضرب يدها في عبّها، تُخرِج الشلن الصحيح «هات ورقة ملح بتعريفة وهات قرشين وخُد الباقي»، وتضحك الدنيا في وجهي، سأشتري كيس طرشي كبيرًا، أخرم بوزه بدبوس وأشفط منه أغلب المياه الحمراء المشطشطة قبل أن أصل إلى البيت.

الرجل أبو كِرش لا يبيع، هو فقط يصنعه، ثم يوزّعه على دكاكين البقالة، لكنه يبيع لي عندما أستخدم سلاح التوسّل وأكرّره، أطلب منه كيسًا فيُعبّئه بنفسه من البرميل رأسًا، أقف إلى جواره وأنظر في فوّهة البرميل، تُسكرني الرائحة المشبّعة بالبوهار والشطّة، وأتخيل بأن الجنّة التي يعد الشيخ بها المسلمين في كل صلاة جمعة فيها براميل

خشبية بلا عدد، وأتمنى أن يحتفظ أبي ببرميل من هؤلاء بدلًا من السرير والدولاب اللذين يملآن الغرفة بلا فائدة.

يُعبّئ الرجل الكيس الكبير فلا ينقص البرميل شيئًا، وأعود إلى البيت بعد أن أنفّذ الخطة التي أعددتها، أثقب الكيس ثقبًا لا يُرى، أشفط منه نصف المياه اللذيذة الحرّاقة، وأترك النصف الآخر كحركة تمويه، أذهب إلى البيت، يأتي أبي من شُغله ويخلع ملابسه:

ـ ايه اللي في إيدك ده يا أيمن؟

وتُجيب أمي قبل أن أرد:

ـ دا طرشي، أنا عارفة ايه اللي بيعجبه في المدعوق ده!

ـ مش قلنا قبل كده ان احنا مش بتوع الكلام ده؟

ـ عيّل يا أخويا ونفسه فيه.

لا أهتم بحوارهما، أسحب طبقًا وأفرغ فيه الكيس، أضعه على الطبليّة قبل أن تُحضر أمي الطعام، يخلع أبي ملابسه ويبدّلها بجلابية مقلّمة:

ـ ماله الكرنب والفلفل اللي في الزلعة؟

ـ حلو يا اخويا وزي العسل. أهي نوبة وعدّت. جرّب اللي نفسه فيه وخلاص.

وتحمل أمي طبق مخلل من الزلعة وتضعه بجوار الملوخية والباذنجان المقلي:

ـ ودا بكام الكيس ده؟

لا ترد أمي، وأقول أنا بسرعة:

ـ بخمسة تعريفة.

يثور أبي ويخبط سطح الطبلية بكفه الكبير:

ـ خمسة تعريفة! يا وليّة حرام عليكي. أصلُه ماشافش المِخْرات ولا حَمِّل نقلة سباخ ورا جاموسة.

ويعلو صوت أمي:

ـ يا راجل مِخْرات إيه وجاموسة إيه بس، إنتَ مش هتبطل بقى الكلام ده؟ وأيمن إيش عرَّفه بالحاجات دي؟

وتهدأ ثورة أبي عندما يبدأ في تحويل اللُقم إلى «ودن قطة»، يغمرها في طبق الملوخيَّة فتصنع خيطًا أخضر رقيقًا بين فمه والطبق.

كنتُ أتابع عينه وهي تنظر إلى طبق الطرشي الأحمر، يزغر إليه أكثر من طبق مخلل الكرنب والفلفل الذي جلبته أمي من الزلعة، لكنه لم يقربه، كانت أمي تأكل معي من طبق الطرشي:

ـ لما ندوق كده.

وقطعة تجرّ قطعة، ثم ترفع الطبق وتشفط رشفة وتمزمز فيها:

ـ والنبي طعمه حلو برضه. ماتدوق حتة كده يا محمود.

يشير أبي بالرفض دون أن يتكلًم، ينغمس في طبق الباذنجان المقلي وطبق مخلل الكرنب والفلفل. تحمد أمي الله وتقوم لتغسل يدها، أسحب أنا الكرة من وراء الباب وأنطلق إلى الشارع. أثناء خروجي أتذكّر أنني لم آخذ من أبي القرش اليومي المعتاد في مثل هذا التوقيت. أبصّ له من الشباك:

ـ معاك قرش فكّة؟

وتنسحب يد أبي من طبق الطرشي الأحمر بسرعة،

يعطينـي القرش ويعود إلى الطبلية مـرة أخرى، أتابعه عبر ورقة شيش مفقودة من الشبّاك، يرفع طبق الطرشي الأحمر ويشرب من مياهه المشطشطة، تدمع عينه ويتكرّع بصوت عابر للغرفة. تعود أمي من الخـارج، ويعود طبق الطرشي إلى مكانـه فـوق الطبلية. تنظر إليه أمي وتكتشـف المفقود منه، تشيل الأطباق ولا تتكلّم.

أخو شكري

عندما نجحت في الصف الأول الابتدائي وجبت مجموع حلو، وعدني أبي بعزومة في مسمط المطراوي يوم الخميس، حلمتُ بالعزومة والفسحة طيلة أسبوع. قال أبي إنه سيدمج مشوارين معًا توفيرًا للنفقات، عزومتي وشراء قماش للتنجيد، وأخيرًا جاء يوم الخميس الموعود.

في المسمط يقف رجل بدين جدًا، مرشوق في خطاطيف أمامه بقايا بهائم مسلوقة، رؤوسها الجرداء معلّقة وفي أفواهها وأنوفها حزم بقدونس، يقلي الرجل ويشوي ويُحمّر، يغرف ويبتسم لمريديه الجوعى. يجلس أبي

ويشـير للرجل، وتنزل الطلبات بالمرق والليمون وفرشـة البقدونس. أكلت وشبعت، تمدّدتْ بطني وطبّلتْ، كانت الأكلة دسمة ولذيذة وأنا بصحبة أبي. وكان من الضروري أن نحبس بالحاجة السـاقعة، أي حاجة. توقّفنا أمام كشك أزرق، سحب أبي من الثلاجة زجاجتين كوكاكولا. فتحهما بأسـنانه برغم الفتّاحة التي أمامـه، وقفنا نشرب ونتكرّع. كنت أشعر بامتلاء وتحجّر في بطني، طفرت دمعتان بسبب الصودا والشبع، والزجاجة كبيرة لا يبدو لها آخر.

نظرت إلى أعلى فلمحت اسم الكشك «أخو شكري»، وسـألتُ نفسي: «لماذا لم يكتب صاحب الكشك اسمه هو على اليافطة؟ ولماذا هو فخور باسم أخيه، وجّهتُ السؤال لأبي الذي تدمع عينه مثلي من الصودا:

ـ يعني إيه أخو شكري؟

يرفـع أبي رأسـه عاليًا، يضع يـده فوق جبهتـه حاجبًا الشـمس عـن عينه حتى تمكن من قـراءة الاسـم، بدت ملامحه مندهشة أيضًا، استغرق وقتًا طويلًا قبل أن يرد:

ـ يمكن شُكري ده شهيد ولّا حاجة.

ينظر لزجاجة الكوكاكولا في يدي، يسحبها مني بهدوء ويضعها في الصندوق. نصل إلى منتصف الشارع الموصل إلى الطريق العمومي، يلاحظ أبي تعلّق عيني باللافتة فوق الكشك:

ـ أمك عايزة فرش التنجيد بورد وأنا بقول يبقى سادة أحسن. انتَ بقى إيه رأيك يا سي أيمن؟

ـ يعني إيه شهيد؟

وعاد أبي يفكّر مرة أخرى في «أخو شكري»:

ـ ممكن يا سيدي يكون شُكري هوَّ صاحب الكشك، وأخوه واقف فيه. بيساعده يعني.

لم أقتنع بكلام أبي عن شُكري.

باب السوق مزدحم، وعربة جيلاتي يخرج منها صوت متكرّر «قلبي هائمٌ. بذكر المصطفى. وشوقي عائمٌ في بحر من صفى»، ندخل إلى السوق ونتوه بين أمواج الناس وأصوات الباعة، ينشغل أبي بأسعار القماش وعرضه وطوله، ولا يشغلني إلا «أخو شُكري»:

ـ يمكن أخو شُكري سرحان؟

وتذوب يدي من العرق في كفّ أبي الكبيرة، ويقول:

ـ يا ابني شكري سرحان إيه بس!

وتجذبه ألوان الأقمشــة ونداءات البائعين، يبلّل طرف شــاله الأبيض ويحكّه في القماش ليتأكد من جودة صباغته. ويقول دون أن أسأله:

ـ لو اتعكّر بلون القماشة تبقى صباغته وحشة.

لا تهمّني هذه المعلومات، أريد منه فقط أن يُفرِغ مكانًا في رأســه لـ«أخو شُــكري». يـترك البيَّـاع ويذهب لآخر، يدعك نسـيج القماش، يشـدّه ويعضّه ويحكّه بطرف شاله الأبيـض، يلتهمنا فم الســوق فنغـوص في أعماقه، تأخذنا أمـواج وتقـذف بنـا أمـواج، نسـير في طُـرق لا نريدها، ونصل لبائعـين يتاجرون في بضاعة لا تهمّنا، ملوحة ولب وعطـارة، ثـم ننعطـف إلى سـوق الغنم، نلـفّ ونعود إلى حيث جئنا، وعربة الجيـلاتي أمامنا مرة أخرى، يخرج منها الصوت نفسه «قلبي هائمٌ. بذكر المصطفى. وشوقي عائمٌ في بحر مِنْ صَفَىَ».

أقف مرة أخرى أمام الكشك الأزرق ولا أرفع عيني من على اللافتة الكبيرة «أخو شُكري».

يهتم أبي هذه المرَّة، يسحبني في اتجاه الكشك. كان الظهر قد أذّن منذ ساعة، والكشك يقف على بابه ما لا يقل عن عشرين شخصًا، مدّ أبي يده فوق أكتاف الزبائن بربع جنيه:

ـ والنبي إزازتين سفن أب.

وامتدت له يد بالزجاجتين دون أن نرى صاحبها:

ـ نشرب بقى الإزازتين دول يا حلو وبعدين أسأل لك الراجل مدام الموضوع يهمّك كده.

ونشرب السفن أب، والكشك مايزال مزدحمًا:

ـ خليك انتَ هنا وأنا هاروح أشوف الموضوع ده.

ويأخذ أبي الزجاجتين الفارغتين ويتجه ناحية الكُشك، وأقف بعيدًا في الظِل، يحاول أبي الدخول وسط أمواج الزبائن، يغيب لدقائق قليلة ثم يعود:

ـ الموضوع طلع بسيط يا سي أيمن.

ـ عرفت؟

ـ أومال.

ـ إيه؟

أمسكني من يدي وعُدنا إلى سوق أقمشة التنجيد من جديد:

ـ مش قلت لك إن الموضوع بسيط؟ بُص يا سيدي. شكري ده محدش عارف عنه حاجة، الراجل اللي واقف في الكشك مأجّره بنفس اليافطة من واحد اسمه فرغلي.

سحبت كفي من اليد الكبيرة، أشرتُ إلى اللافتة:

ـ شُكري. بسألك عن شُكري.

يمسك بيدي مرة أخرى:

ـ مانا قلت لك يا أيمن أفندي. محدش عارف عنه حاجة.

لم أقتنع بكلام أبي. سِرتُ معه وأنا أفكّر في شكري وأخيه، لم يُغيِّبه عن تفكيري باعة البلالين وغزل البنات،

ولم أنسه برغم الجلبة ودق البيّاعين. توقف أبي أمام أثواب تنجيد أطول منّي، وأخذ يتفرج ويفاصل:

ـ هاخذ منك عشرين متر. يعني تكرمنا.

ـ مـن مطرحه بنفس السـعر وحياة مـن جمعنا من غير ميعاد.

ويفرد الرجل الثوب، ثم يقيس بعصا طويلة ويفرّ اللفّة الكبيرة، ويكلم أبي عن الورود وجودة الصباغة.

يحمـل أبي ما اشـتراه في يد، ويسـند يـده الأخرى على كتفي، ينظر لأعلى والعرق يغمر رقبته وينقّط على الأرض:

ـ بـص يـا سي أيمـن. فيـه أسـئلة كتـيرة في الدنيا دي ملهاش إجابات. أسـئلة كتيرة أوي. ويـا ريتها تيجي على قد أخو شكري، لما تكبر شوية هتلاقي مليون أخو شكري في طريقك. متدقش.

تغيب الشـمس قليـلًا، صُفرتها تُلـوّن الأرض أمامنا، يبتعد الكشـك كثـيرًا، ونركـب المترو، يشـق بنا الشـارع، وتطنّ في رأسي أصوات صاجات العرقسـوس والمواويل

الخارجة من عربة باعة الجيلاتي، يختلط احتكاك العجلات الحديديَّـة بالقضبان، تكتكات ثابتة وتمايل خَدَّر جسـدي بالكامـل. وأرى في طرقـات المـترو عربـة جيـلاتي يخرج منها الصوت المتكرر نفسـه «قلبـي هائمُ. بذكر المصطفى. وشوقي عائمُ في بحر من صفى».

البحث عن الكبشوصة

حدث ذلك وعمري أقل من ثلاث سنوات.

ارتفع صوت بُكائـي وظهر على وجهي خطّان رفيعان من الدموع، فدخلتْ أمي المطبخ بسرعة:

ـ مالك يا حبيبي؟

في لحظات الشـدة كانت تقول يا حبيبي، ويقول أبي «يا ابني»، وعندما تتنازل بسـبب شقاوتي وتقول يا ابني، كان أبي يقـول يا زفت. هذه المرة لم يهتم أبي بما يجري في المطبخ، أمي وحدها اقتربتْ مِنّي عندما سَمِعتْ صوتي:

ـ مالك يا أيمن؟

لم أرد، فقد كنتُ أبحث عن المقصوصة، ليس بالضبط، لم أكن أبحث عن الأشياء، بل أبحث عن الكلمات التي تشغلني، لا يهمني ماذا تعني، كنتُ أحدّد العلاقات في رأسي بين الكبشة والمقصوصة والملاعق، أستبعد السكاكين رغم أنها في الدرج نفسه، أمّا الجاروف فكان مُستبعدًا تمامًا.

وسبب بكائي أنني وقفتُ أمام الكبشة والمقصوصة ولم أستطع التفريق بينهما، كنتُ قد جمعت بعض الكناسة بمقشة صغيرة لِعبة، وقررت أن ألملم ما كنستُ بالمقصوصة، الكبشة أكبر ويمكنها استيعاب الكناسة، والمقصوصة مسطّحة ويمكنها لمّ الكناسة أسرع، أردتُ أن آخذ محاسن الاثنتين معًا، عُمق المغرفة ورشاقة المقصوصة. عرفتُ ما أودّ معرفته عن الأشياء، وبقي أن أخلع على ما أريد اسمًا يناسب ما أفكّر فيه، اقتنعتُ بأنها لابد أن تكون اسمها مقصوصة، كان اسم كبشة أو مغرفة لا يروق لي كثيرًا، وضعتها فوق رف مُهمل في رأسي، خصصته للأسماء التي

أريـد حذفها من قاموسي المحدود، مثل «مريلة» و«ملاءة» و«بطارية»، ألم يجدووا غير هذه الأسـماء؟ كلمات سـخيفة النطق والتركيب، لماذا لم يسموا المربع الأسود الذي يُشغِّل التليفزيون «تمبُكَّة»، أو ملابس المدرسة «ببيون»؟

وقفتْ أمي في المطبخ، مسـحت وجهـي بعد أن بللت كفَّها بالماء:

ـ مالك يا أيمن؟

لم أستطع وقتهـا أن أحدّد «مـالي»، فقط كنـتُ حزينًا جـدًا لعـدم تمكّني من دمـج المغرفـة والمقصوصة في شيء واحد أسـتخدمه بديلًا عن الجاروف، لماذا لا توجد كلمة «الكبشوصة»؟ وإن وُجِدَتْ فأين هي؟ وأستمع لأصوات تأتيني متقطّعة، غير مرتبطة بشيء من حولي، لكنها مرتبطة بأشياء كثيرة في رأسي..

صندوق أبيض وسماء مُشرَّبة بحُمرة..

تطفو وجوه بعض عيال أعرفهم..

وبعضٌ لم يأتِ موعد معرفتي بهم بعد.

وبنت كبيرة لها عينان كبيرتان..

وتوقّع أخٍ لم تلده أمي..

تراب يملأ الشارع وفردة حذاء تضيع..

وكلام بيني وبين طفل صغير مثلي لا يجيد الكلام..

أنتبه من سرحاني مع الكلمات، وتسأل أمي بحسم هذه المرة:

ـ مالك يا أيمن؟

لم أبحث عن إجابة، بل رحتُ في نوبة بكاء شديد.

اللّقطة

ـ تعالى..

قالت أمي وهي تمدّ يدها، وكنت أجري مع الواد حمادة والواد غطّاس في الشارع، مددت يدي فجذبتني للداخل. وسمعت صوت حمادة:

ـ العربيَّة قرِّبت تيجي.

لم ألتفت إليه، بل قلت من بعيد:

ـ أمي عاوزاني.

فقال غطّاس:

ـ طيب والراجل بتاع الجير؟

كانت قبضة أمي قد أُحكمتْ على ذراعي، فلم أعد أستطيع الالتفات للخلف نهائيًا.

ـ أيمن. يا أيمن..

لم أنظر إلى حمادة، ولم أهتم بكلام غطّاس، أفكّر فقط في سبب استدعائي المُفاجئ للداخل.

كان أبي يرفع قميصًا مكويًا من على الشماعة، يتأمل ياقته المقلوبة عند سمير الخياط، فلمح قطعًا صغيرًا عند الجيب:

ـ هاتي إبرة وفتلة.

لم تلتفت أمي لما يقول، فقد كانت منشغلة في لفّ طرحتها السوداء حول رأسها، سحبتْ نصف خُصلة من شعرها وأنزلتها من تحت الطرحة، شدّت الجلابية أم كالوش وحبكتها على وسطها. أبي يبحث عن حذائه ويعيد على أمي سؤاله:

ـ شُفتي لي إبرة وفتلة؟

تلتفت إليه وهي تُغمض عينها على قلم الكحل وتسحبه بعنف:

ـ إبرة إيه بس؟

ـ القميص جيبه مقطوع، هيبان في الصورة.

تبحث أمي عن مجمع صغير تضع فيه مستلزمات الخياطة، تعطيه له وهي واقفة أمام مرآة صغيرة مكسورة، تتابع ضبط خصلة الشعر، تمدّ له يدها:

ـ يا شيخة مش هاين عليكي تلضميها. هوّ أنا بقيت أشوف؟

تلضم أمي الإبرة بخيط أبيض، يأخذها أبي ويقارن لون الخيط بالقميص اللبني:

ـ مش هيبان أوي برضه.

يجلس على حافة السرير، يُقرِّب عينه من الجيب، في الغرزة الأولى تدخل الإبرة في إصبعه، يلحسه قبل أن تراه أمي المنشغلة في تعديل طرحتها السوداء وخُصلة شعرها، يعاين أبي القميص بعد أن رمّم القطع في جيبه،

يرتديه ويبحث عن الحذاء، يُخرِجه ويلمّعه ثم يقف خلف أمي وينظر في المرآة المكسورة، يساوي شعيرات خفيفة في رأسه. تُلبسني أمي أفضل ما عندي، كأننا ذاهبون إلى فَرَح.

أخرج إلى الشارع في زهوٍ قليلًا ما أشعر به، نرتدي أفضل ما عندنا، سأتصوَّر صور التحاقي بالمدرسة، وبالمرَّة ستُلتقط لنا صورة جماعية للذكرى، ابتسم، اثبت قليلًا، تك. تك. خلاص، ثم نعود كما كنا، نلبس ما خلعناه منذ ساعة، ثم نتفرَّج على الصورة كما يفعل عمي مُراد، كان يفرّ صوره القديمة أمامي، يتحسّر على أيام جميلة مضت، ويوهمني بأن الأيام كلها كانت نظيفة، مثل الصور تمامًا.

في الشارع أرى غطّاس يقف بعيدًا، ويستوقفني الولد حمادة، كان ذاهبًا للسوق مع أمه، فتقف أمي مفرودة الصدر وهي تنظر لأم حمادة، ربما لتلفت نظرها إلى الحلاوة الربّاني، تضع يدها على كتفي وكأن الصورة ستُلتقط لنا الآن، لم تقل لأم حمادة أننا ذاهبون للتصوير، وكأن ما نرتديه من ملابس وما تضعه أمي من عطر وكحل هو جزء من حياتنا الطبيعيّة، يقف أبي بعيدًا ولا ينظر لشيء

معين. يسحبني حمادة من يدي بعيدًا عن النظرات:

ـ عربية الجاز اللي احنا بنتشعبط فيها لغاية الراجل بتاع الجير قرَّبتْ تيجي. وأنا وغطّاس هنستناك لغاية ما تيجي.

لا أرد على حمادة، ولا أريد أن أتذكّر فقرات من كتاب التشرد الذي فتحه منذ قليل، فالملابس المكوية والحذاء اللامع جعلوني أفكّر في فعل أشياء جميلة، أذهب بالكرة إلى النادي ولا ألعب بها في الشارع، أو أركب الأتوبيس ولا أهرب من الكمساري، سوف أدفع تذكرة مثل الركّاب المحترمين.

لم أرد على حمادة، تظاهرت بأنني لا أعرف شيئًا عما يقول. يبتعد حمادة وأمه عند آخر الشارع، نسير في اتجاه آخر.

بعد مشي عشر دقائق ونحن نسير في اتجاه استديو التصوير وقفت، فالحذاء الجديد بدأ يؤلم قدمي، اشترى أبي علبة مناديل وسحب واحدًا وضعه بين كعبي وجلد الحذاء:

ـ معلهش يا أيمن. كلها خمس دقايق ونوصل.

وبـدأ الكحـل في عين أمـي يسـيل، تسـودّ حدقتيها، وخيط أسود يشق طريق بطيء على خدّها، وأبي ينظر كثيرًا لمكان الجيب المقطوع، يضع منديل قماش بين ياقة القميص وقفاه.

تظهـر في الجانب الآخر من الطريـق لافتة مضيئة يلفّ حولها حبل نور ملوّن «استديو الحريّـة»، نعبر الطريق، لا أعـرف هل بهرت أبي الإضاءة لدرجة أن يتأمّل اللافتة كل هذا الوقت؟ دخلنا وجلسنا على كـراسي جلدية غاصت بنـا. تخرج عـروس تُجرجر من خلفها ذيل فستان أبيض، والمصـوّر تثبـت ملامحه على نصـف ابتسـامة يوزّعها على الحاضريـن، ألتفـتُ لأبي وأرى ملامحـه حمـراء، كأن الدم تجـدّد في شرايينـه، وألمح شـاربه الذي رفّعـهُ حتى أصبح مناسـبًا للموضة، كشـنب كمال الشـناوي، وأمـي أيضًا، كانـت تُقلّـد لفّة الطرحة التـي ترتديها فاتـن حمامة عندما تُقلّد أشخاصًا مثلنا.

عندما جـاء دورنـا في التصويـر أطفأ الرجل المبتسـم

أغلب الأنوار، دخلت الغرفة وأنا أشـعر بأنني طفل آخر غير الذي كان يقف منذ قليل في انتظار عربة الجاز لتوصله إلى رجل الجير، وأبي أيضًا، كان كممثلي السينما، أما أمي، فقـد جعلها الزهـو تعلو بضعة سـنتيمترات عن الأرض، ككائن أرضي يستعد للطيران.

قمنـا بعد أن ابتسـم لنا المُصـوِّر، ثم دخلنـا إلى الغُرفة المُظلِمة.

العسكري

عـم لطفي هو مـن أوصل إلينـا الخـبر، كان يجري في الشارع ويشدّ ما تبقى من شعر رأسه:

ـ خربوا بيتي ولاد الكلب!

وتجري من خلفه زوجته يزفّها العيال:

ـ مرات عم لطفي. مرات عم لطفي بتاع التموين.

كان لهـا أبنـاء وبنات كبار، وكنا نراهـا فقط زوجة عم لطفي صاحب محل البقالة الذي يصرف لنا حِصّة التموين الشـهري، أجري أنا وحمادة ابن أم حمـادة ونحن لا نعرف

لماذا نجري ولا أين ستستقر هذه الهرولة، الصراخ المستمر يوحـي بأن مصيبة حدثت للتو، آثـار دخّانها في الهواء وفي دبيب السائرين.

في مساء اليوم نفسـه تحلّقنا حول تليفزيون أبو شربات الـ NEC تليمصر، وسـمعنا نـشرة الأخبار، بعـد النشرة سكت صوت التليفزيون وتكلًّم الناس:

ـ اشمعنى التموين؟

ـ السـكر والزيت نعمة ربنا يدوسـوا عليـه بالرجلين. الكفرة.

ـ وأتواب الكستور كمان.

تنفضّ الجلسـة المسـائية ويُطفئ أبو شربات تليفزيونه الـ NEC تليمصر ويُدخله، أحمل معـه الإيريال والبطارية الثقيلـة السـوداء، ويـدور الحـوار بـين أبي وصاحـب التليفزيون:

ـ بيقولوا هينزلوا عسكري بوليس في كل شارع.

ويرد أبو شربات:

ـ وهيَّ الحكومة هتلاحق عساكر منين؟

وقبل أن يدخلا إلى النِقاش الحامي نسمع صوت فرملة سيارة جيب بيج لها سقف من قماش، تتوقف عند أول الشارع، ينزل منها عسكري واحد، ثم تنصرف السيارة مُخلّفة وراءها دوامة من التراب، كان العسكري يرتدي ملابس سوداء وحزام أسود وبيادة سوداء ويحمل فوق كتفه بندقية تبدو من بعيد سوداء أيضًا، يقترب وتبان ملامحه المكشَّرة، وقف كل من في الشارع، الرجال في منتصف الطريق، والعيال في المقدمة، والنساء على أبواب البيوت، كلما اقترب العسكري أكثر بانت ملامحه تحت البيريه الأسود، توقف قبلنا بخطوات قليلة، ثم خلع بندقيته ورشقها في الأرض، باعد بين قدميه ولم يتكلم، أخذت أتأمله أنا والولد حمادة طويلًا، تبينت صوت حمادة بالكاد من بين ضجيج الكلمات والجلبة:

ـ البندقية دي حقيقية على فكرة.

وأصدُق على كلماته لأبدو كبيرًا في نظره:

ـ عارف. وفيها رصاص حقيقي كمان. زي اللي كان في مسدس فريد شوقي.

ينظر إليّ حمادة بقرف:

ـ وهوَّ مُسدَّس فريد شوقي بيبقى فيه رصاص حقيقي؟

وأتأمل البندقية جيدًا، لا يظهر منها في الظلام إلا الماسورة وجزء من حزامها الجلدي، لم أرَ أهم جزء كنت أودّ رؤيته، الزناد.

يخلع العسكري البيريه ويلفّه بين أصابعه ثم يُعيده إلى رأسه خفيفة الشعر، يحمل بندقيته وهو ممسك بحزامها الأسود، يعطينا ظهره ويسير خطوات قليلة، يقف عند رأس الشارع ولا يتكلّم، ولكن الناس تتكلّم.

ـ هُما يعني هيخوفونا بالعساكر؟

ـ وهوَّ العسكري الغلبان ده هيعمل إيه لوحده؟

ـ ده شوية كده وهيمشي.

لكن العسكري لا يمشي، يعسكر في مكانه، يجلس

على حجر دون أن يخلع بندقيته عن كتفه. ويقترب منه عم لطفي وزوجته:

ـ أهم حاجة انك جيت يا دُفعة، قصدي يا باشـا. مالي راح، البضاعة اللي أنا ماضي عليها اتبدّدتْ، السكّر ضاع في التراب. والزيت الأرض شِربته، اعمل لي محضر يا باشا.

لا يـرد العسـكري، لا ينفعـل بكلام عم لطفـي، كأنّه تلقـى أوامر بعـدم الاندماج مـع النـاس، وتناديني أمي، أدخل فتعطيني كوب ماء باردًا بالسُكّر:

ـ خُد. إديهوله. غلبان تلاقي ريقه ناشف.

وآخـذ الكـوب، أتخيّـل العسـكري وهو يـشرب ماءً بالسُكّر، وهل يشرب العسـاكر مثلنا ماءً بالسُكّر؟ جاء معي الولد حمادة ابن أم حمادة، قال:

ـ أمك طيبة، هوَّ ده يحوَّق معاه ميَّه بسُكّر، دا عايز نُص فرخة وحلّة رز.

وأنا الذي لم أتخيل أن يشرب العسكري ماءً بالسُكّر؛ كيـف يمكنني تخيّلـه وهو يأكل نصف فرخـة وحلّة أرز؟

قــال حمــادة أيضًا أن العســاكر لا يأكلون شـيئا ممــا نأكله، فالعســكري يتدرب على القفز فوق النــار وأكل الضفادع حيّة، يعوم في البِرَك وعينه يخرج منها شعاع يقتل من بعيد. ولِمَ لا أصدّق حمادة؟ فكل ما يقوله يحدث، هو الذي عرّفني أن الموناليــزا صورة لامرأة أجنبية وليســت ممثلة من بلدنا مثل ســهير رمزي أو نجلاء فتحي، وهو الذي كذَّب كلام العيــال عن أنها تمتلك معجـزة النظر من جميع الاتجاهات، أقف على يســار الصورة فأراها تنظر لي، على يسارها تنظر لي أيضًا، أجلس وأرفع الصورة في كفّي فأراها تبتســم لي. أفســد حمادة هــذه النظرات وقــال إن أي صورة لا تختلف عن الموناليزا، وكذَّبناه جميعًا، وقَبِل التحدّي، غاب لدقائق ثم خرج وهو يحمل بروازًا فوق رأسه، وفرَّجنا على صورة قديمــة لجدّه، وقفتُ عن يمينه فرأيته ينظر إليَّ، عن يســاره كان نفس الشيء:

ـ هوَّ بس لو مش أحْوَل شويَّة.

قال حمادة وضحكنا، وتحطَّمتْ أســطورة الموناليزا على يد الولد حمادة، فهل ســتتحطم أســطورة العسكري أيضًا على يده؟

يندلق نصف كوب الماء بالسُكَّر في الطريق قبل أن نصل إلى العسكري الأسـود، أمدّ يدي إليه وينتظر قليلًا قبل أن يمدّ يده، يبتسم. بدأ يأخذ مكانته الطبيعية في خيالي عندما رأيـت حنجرته تتحـرك لأعلى وأسـفل مثـل أبي، شرب الكوب في رشفة واحدة، أعطاه لي وابتسم دون كلام.

يمرّ سرياقوسي بجوار العسكري دون أن يلتفت، كان يختبر رد فعل العسكري المُسلَّح، لم يكتشف العسكري بأن سرياقـوسي حرامي، كلنا نعـرف ذلك، لكن العسـكري لا يعـرف. فهو غريب عنَّـا، أمَّا سرياقوسي فابنه سـلطان يلعـب معنا كل يوم، كلنـا نعرف أن أبا سـلطان حرامي، وسـلطان أيضًا يعرف، لكننـا نلعب معـه، يغلبنا ونغلبه، ونطـيِّر الطيارة معًا بعد العصاري، يسـلِّكها لنا من أحبال الغسـيل وأعمدة النور، ويلزق لها السـليوفان المُلوَّن ببقايا علبة مانيكير ملقيَّة في الخرابة الكبيرة بجوار أبو سعودي.

لم يشـغلني لماذا جاء العسـكري إلى شـارعنا، وكم من الوقت سـيبقى هُنا، لكنني كنتُ أتابع تصرفاته ومقارنتها بتصرفات مـن أعرفهم من الرجال الآخرين في الشـارع،

وقفت على مقربة منه وفي يدي الكوب الفارغ، رأيته يهرش في قفـاه، ثـم قفزت سـحليَّة بين قدميه، لمـاذا لا تخاف من بندقيته المحشـوَّة بالرصاص؟ خلع فردة من حذائه الكبير أبـو رقبه بعد أن فـكَّ رباطه الطويل، حـكّ كعبه ثم لبس الحذاء مرَّة أخرى، قال حمادة بصوت لم يسمعه غيري:

ـ العسكري ده عايز يدخل الحمَّام.

ـ وعرفت منين؟

لم يخف حمادة من الإشارة إلى العسكري على مقربة منه:

ـ بُص. عمَّال يفرك على الحجر ازاي. وبُص كمان لوِشُّه. عمال يجيب ألوان.

ولم أصدِّق بأن العسـكري يمكن أن يعمل حَمَّامًا، وقال حمادة:

ـ تحب أثبت لك؟

ـ دا عسكري يا حمادة. عارف يعني إيه عسكري؟

يقترب حمادة منه، يؤدي له تحية عسكرية رخوة:

ـ عندنا دورة ميَّه يا دفعة لو تحب.

ينظر العسكري إلينا في عِزَّة، ثُم يومئ برأسه، يصحبه حمادة إلى بيتهم، يسير في المقدمة والعسكري يتبعه، وأنا أمشي خلفه ولا أستطيع منع عيني عن النظر إلى مؤخرته النحيلة، كانت أعين الكِبار تتابع العسكري فقط، تراه ولا ترانا، حتى أبي، تعلَّقت عينه بالعسكري، وأم حمادة أيضًا، لم تلتفت إلى حمادة بقدر ما شغلها منظر العسكري بالزفَّة المُصاحبة له.

انتظرناه جميعًا بالخارج كمن ينتظر حدثًا مهمًا، العسكري يعمل حمَّامًا، خرج وهو يعدل من وضع حزامه الأسود العريض، ويضبط البيريه فوق رأس، ويرفع سير البندقية الجلدي فوق كتفه، اتجه ناحية الحجر الذي كان يجلس فوقه مرَّة أخرى، عاد لسيرته الأولى.

يقترب حمادة ويشير إليه مره أخرى:

ـ العسكري عاوز ينام.

وأسمع صوت العسكري وهو نصف نائم، لأوّل مرَّة ينطق:

ـ أنا مش عسكري. أنا أومباشي.

ولا أعرف معنى لكلمة «أومباشي»، ربما حمادة يعرف، فهو كبير وفي سنة خامسة، أسأله ويجيب:

ـ شكلها حاجة أكبر من العسكري.

دخل الليل وخفَّتْ حركة الناس في الشارع، نصف الرجال ومُعظم النساء وبعض الأطفال دخلوا إلى بيوتهم، أقف أنا مع حمادة ويراقبنا سلطان، كُنا أقرب للعسكري من الرجال، رأيناه وهو يغفو ثم يعود لليقظة، كنتُ أغمض عينيّ وأرى الحجر الجالس عليه يطير في الهواء، يعلو ويقترب من الطيَّارة الورق التي أصلحها سلطان ابن سرياقوسي، ثُم يزغدني حمادة فأصحو وأرى العسكري نائم، ثُم ينام حمادة ويستيقظ العسكري، ثم يمرّ سلطان أمامنا كطيف، بينما كلنا نائمون.

ثمن الغويشة

كانــت أمي نائمــة، صحّاهــا أبي ودسَّ في يدها منديلًا مربوطًا من أطرافه، استيقظتْ وهي نصف نائمة، فتحتْ جفنيها بالعافية في ضوء النهار، عاينتْ ما منحه أبي إيَّاها:

ـ إيه ده يا محمود؟

ـ بس افتحيها كده يا نادية.

قال وهو ينظر إليّ، كنتُ أتظاهر بالنعاس لأستمع لبقية حوارهما:

ـ أخدت مكافأة.

ـ وهيَّ دي؟

ـ لأ. دي حتّة دهب على القد كده.

ـ دهب. ليه إنتَ أخدت كام؟

ـ عشرين جنيه.

ـ عشرين جنيه بحالهم، ليه؟

يقف مزهوًا ويفتح اللفافة الصغيرة:

ـ فاكرة الحرامي بتاع أول امبارح؟

تستيقظ أمي بشكل كامل، تجلس مقرفصة فوق السرير:

ـ ينيّله!

وأسرح مع الحرامي الذي صحبه أبي إلى هُنا أول أمس. جاء من عمله مُبكرًا، وكنتُ عائدًا من المدرسة، رأيتُ يد أبي اليمنى مُكبّلة بدائرة حديدية، ودائرة أخرى ملتصقة بها وقابضة على اليد اليسرى لشخص آخر لا أعرفه، ضخم جدًا ورأسه كبير، ملامحه تائهة كأنه لم ينم منذ سنة،

سألتْ أمي أبي:

ـ مين ده يا محمود؟ وايه اللي في إيدك ده يا راجل؟

فردَّ وهو يمسح عرقه بيده الحُرّة:

ـ دا الريس جابر. هناكل لقمة وهروح أسلمه في المديرية.

ينظر الرجل لأمي ولا يتكلم. فتوجّه كلامها لأبي:

ـ ريس مين ومديرية إيه وإيه الي جايب الأشكال دي هنا؟

ويدخل بعض الجيران ليستفسروا عن الأمر:

ـ هوّ ده الحرامي اللي مِسكه أبو أيمن؟

ـ أيوه كده يا حَصّوُل محمود. ما يجيبها إلا رجالها.

تعرق يد أبي في الدائرة الحديدية، ويقف الرجل الغريب ينظر ببلادة لما يحدث. ينصرف الناس ولا يبقى إلا أنا وأمي نقف أمام أبي والحرامي.

ـ عايز أفك ميه.

يقول الحرامي دون أن يوجّه الجملة لأحد، ينظر أبي خلفه فلا يجد شخصًا واحدًا من الجيران يحتمي به، يُخرج المفتاح من جيبه بيد واحدة، تتابع أمي الموقف ولا تستطيع التعليق، يدخل المفتاح في منتصف الدائرتين الحديديتين، تنفرج الدائرة التي تقبض على يد الغريب، يسير الرجل ببطء إلى دورة المياه، ينتهز أبي فرصة غيابه ويسحب رشفتين من طبق الملوخية التي تسخّنها أمي، ثم يبحث عن شيء. تسأله أمي:

ـ عاوز حاجة؟

ـ كانت فيه هنا شومة؟

ـ عاوزها ليه؟

ـ هاتيها بس.

وتعطيها أمي له، يركنها قريبة جدًا منه، يقف خارج دورة المياه وهو يشبّ ويفرد صدره قدر استطاعته. يخرج الرجل وتغيب أمي عن المشهد، لكنها تتابعه من بعيد، يخطو الغريب ببطء، يتربص به أبي ويرفع يدًا واحدة فيها

دائـرة حديدية مُغلقة وأخـرى مفتوحـة ومتدليّة. يقترب الغريـب من أبي ويمـدّ له يـده، وأثناء ما كان أبي يسـتعد لوضع يد الغريب كما كانـت داخل الدائرة؛ يدفعه الرجل ويجري بأقصى ما فيه من عزم، يقع أبي كطفل أطاح به رجل في مشـاجرة، تندلق حلّة الملوخية فوق رأسـه وتقع بعض الأطبـاق. يقوم أبي بسرعة ويمدّ يده ويسـحب الشـومة، يتبع الريس جابـر بخطوتين، يقفز الرجـل خارج البيت، صرختْ أمـي لما رأت أبي واقعًا عـلى الأرض، جاءت «يا هـوي» متأخـرة بعد أن فـطّ أبي للخارج بالسرعة نفسـها التي وقع بها، جريتُ خلفهما وأنا لا أعرف ماذا سيحدث. كان الرجـل يقفز أثناء الجري فتتضاعف مسـافة الخطوة، في إحـدى القفـزات الطائشـة غـرزت قدمـه في الطرنش الملآن، فوقع ولم يظهر منه شيء بعد أن انقلب عليه الغطاء الأسمنتي، تخرج أمي خلفنا وتضرب صدرها بيدها:

ـ يا نهار اسود. راح فين المخفي؟

وقبـل أن يجيبهـا أحد على سـؤالها يمدّ أبي يـده ويرفع الغطاء بسرعة بمسـاعدة أبو شربات، يقفا على الحافة وهُما

يبحثان عن مكان الفقاقيع. يسحب أبو شربات الرجل فيظهر منه يد وكتف، ثم يُكمل أبي خروجه وهو مُغطًى بمحتويات الطرنش الخضراء، وقبل أن يفيق أو يلتقط أنفاسه يباغته أبي بالأقلام والشلاليت حتى يقع على الأرض:

ـ يا ابن النجسة يا ناقص، يعني عايز توديني في داهية أونطة، أهو ربنا وقّعك في أوسخ حتّة.

يمسح أبي عن وجهه بقايا الملوخية المدلوقة، ويكمل أبو شربات الطريحة ضربًا وركلًا. يفيق الرجل فيجد حوله أكثر من عشرين رجلًا، يقف أبي في مقدمتهم ويرفع في الهواء شومة، تتأرجح في يده الحلقة الحديدية الفارغة. يرشّ أحد الجيران الغريب بخرطوم مياه، ثم يربطه أبي كما كان، ويقول أحدهم:

ـ هنيجي معاك لحدّ ما توصله المديرية يا أبو أيمن.

ثم غابوا جميعًا في غبش الغروب عند نهاية الشارع، وبقيتُ أنا مع أمي.

لم تـزل أمـي جالسـة عـلى السريـر تبعد النعـاس قدر استطاعتها كـي يمكنها التركيـز مع يد أبي الذي أمسـك كفّهـا بالفعل وبدأ في إدخال الغويشـة الذهب النحيلة إلى معصمها، لفّتها أمي أكثر من مرّة وقالتْ:

ـ بقى المكافأة دي علشان سلمت المنيّل ده؟

فردّ وهو يلفّ الغويشة ويعاينها في يد أمي السمينة:

ـ آه. ولو كان هرب كنت هتحط مكانه.

ـ هوّ كان مجرم خطير يا اخويا؟

ـ قاتل مراته وواخد خمستاشر سنة.

ـ يا سوادُه!

يبتسم أبي:

ـ سيبك انتي يا نادية. البتاعة دي هتاكل من إيدك حتة.

تلملـم أمـي الجلابية حـول قدميهـا وتنـزل من فوق السرير، تتوقّف في منتصف الطريق وتلتفت لأبي:

ـ إلّا قـول لي يا خويا. هـوّ الراجل المخفـي ده لو كان هرب منك كنت هتتحبس مكانه بصحيح؟

أومأ أبي دون كلام وهو يبتسم، فكشّرت أمي وخبطت صدرها بكفّها:

ـ يا سوادُه!

يضحك أبي ويتجه نحو سريري، يهزّني برفق:

ـ أيمن. يا أيمن. إصحى.

الطيّارة

تشـتد الريح وتطلب من الخيط المزيد، وشَلّة الخيط في نهايتها.

ترتفع الطيَّارة أعلى من توقّعات سلطان، أقفُ بجواره مندهشًا من مـدى الارتفـاع البعيـد، لا تصدّقـه عيني، سـلطان هو الذي ضبط الميزان الثلاثي مع العُقدة، وشـدّ الحبل على عيدان الجريد، وورق السليوفان الملوّن ملصوق بالصمغ سبعات وثمنيات، والذيل أبو شراشيب أطول من سلطان.

منذ سـاعة، صفّر لي سلطان، فخرجت، وخرج حمادة،

كل واحد منًّا دفع بريزة بحالها، ولم يدفع سلطان، اشترك بمجهوده، ولولا مجهوده لفشلت فكرة الطيران، اشترى البوص وشقّه بسكّينة قصّافة، رسم دائرة على الأرض ووضع عليها شُلخ البوص ثم ربطها بخيط رفيع لا يُرى، وبالمسطرة شقَّ السليوفان ثمانية مثلثات منتظمة، لحَمَها بالصمغ. مرَّت ساعتان، لم أرَ فيهما إلا يد سلطان والطيَّارة الورقيَّة.

انتهى أخيرًا، رفع الدائرة الملوّنة، كانت في حجم طبلية كبيرة، جرَّ ذيلها في الأرض وكنستْ ورقًا وأكياسًا وزبل حمام. ساعدتُ سلطان في حملها، كان الأطول بيننا فرفعها بأقصى ما يستطيع، وملَّستُ أنا على ذيلها الطويل، وحمادة أمسك بلفَّة الخيط الكبيرة.

ـ خلّي بالكم. لازم تطير أعلى من طيارات كل العيال اللي من الشوارع التانية.

قال سلطان، ونظر حمادة إليه:

ـ قول لنفسك. لو مطارتش يبقى العيب فيك. احنا دفعنا اللي طلبته مننا وخلاص.

كان القـرص الملوّن الكبير يطـير في خيالي قبل أن يطير فعليًـا، أرى نفسـي متقرفصًـا فـوق الطيّـارة والريـح تهزّ شـعري، أسـاوي قُصَّتي وأرى البيوت مـن فوق صغيرة كعلب الكبريت.

يفكّ سـلطان الخيط ويقف حمادة بعيـدًا يحمل الطيّارة وينتظـر أوامر الانطـلاق، يجري سـلطان بالخيط في نفس التوقيت الـذي يعطي فيه حمـادة للطائرة حريـة الطيران. ترتفع الطيّارة أقل من خمسة أمتار ثم تترنح وتهتزّ في تشنج على شكل كفّ يعمل «باي»، ثم تقع على الأرض، يقترب سـلطان ويبحث بعينه عن عيب يعالجه، يرفع الذيل ويزنه بنظرة خبير:

ـ عاوزيـن حتـة مـن إزازة مكسـورة نقطع بهـا الخيط ونربطه من جديد.

يلمـح حمادة رقبـة زجاجة، في ثوانٍ تكـون بين أصابع سـلطان، يقطع الدوبارة ويغـيّر وضعها بخفّة، وأنا أملّس عـلى ذيل الطيّارة الملـوّن، نعدل العيب ونحـاول التجربة مرة أخرى، ترتفع الطيّارة بسرعة لمسافة أعلى من توقّعاتنا، تصل شَلّة الخيط لنصفها في وقت قصير.

أصبح علينا أن نفكّر بشكل مختلف، فللنجاح حسابات أخرى، ارتفع طبقنـا الطائر أعلى كثيرًا من طائرات أخرى هزيلـة لا يتعدي طيرانها عمود النور، تلفّ بجوار طيّارتنا عصافير صغـيرة وأسراب حمام، تصبـح الطيّارة في حجم قرص مشـبّك، يفكّ حمادة لسـلطان الدوبـارة بسرعة من ينقـذ سـفينة من الغـرق. تتعلّـق عيوننـا وأرواحنا بذلك القرص الملوّن ولا نرى من الحياة شيئًا آخر.

تمـرّ عربة الحمّص التي ينزل لها الولد حمادة مخصوص مـن الدور الثالـث، لم يرها، ربما نسي بعـد لحظة إن كانتْ مـرّت أم لا، يرجع حمادة للخلف، ظهـره يحكّ في كِرش، يلتفـت فـيرى أبوه يبرطـم بكلمات كثـيرة لم يسـمع منها حمادة حرفًا، الأب يحمل شـنطتين ثقيلتين مشـدودتين إلى الأرض، يرفـع إحداهمـا أمام حمـادة، ترفـس رِجل حمادة الأرض، ويـصرخ الفم المنتمـي لليد الحاملة للشـنطتين، يشتم ويمطر من فمه رذاذًا أبيض، يبتعد الفم والشنطتان، وتخفت أصوات الشـتائم، ثم تختفي الشـنطتين، ويصمت صوت الفم.

ترتفع الطيّارة وتطلب من الخيط المزيد، وشلّة الخيط في نهايتها.

في اللحظات التي تكلّم فيها أبو حمادة كانت الطيّارة تغرق، والخيط عمل بحر، وبحر الخيط ليس له إلا معنى واحد، أن الطيّارة سترنّح بعد ثوانٍ، ستفقد المركز والثقة وتدور حول نفسها، فيتعقّد الخيط وتبدأ رحلة الهبوط، ستشتبك مع إيريال فوق سطح، أو تلفّ حول عمود نور، ستدخل في حالة حميمية مع طائرة أخرى من صنف أدنى، يتعانقان ويسقطان أرضًا، ونتبادل التهم أنا وسلطان وحمادة حول المتسبب في الكارثة، وتقلب بخناقة يطير فيها الطوب كما يفعل الكبار. لم يحدث شيء من ذلك، فسلطان يعالج المشكلة الآن، يسحب الخيط بسرعة، يد تناول الأخرى، وحمادة يلفّ الدوبارة على الخشبة الجريد حتى اختفى بحر الخيط.

تصفرّ الشمس ويتكوّم قرصها خلف البيوت أصغر من فطيرة، يُرسل عمود النور القريب ضوءًا ضعيفًا، والطيّارة ماتزال قادرة على التحليق عاليًا وتطلب المزيد

من الخيط، الشلَّة خلصت وسلطان يرفع يده بآخر ما عنده لتعلو الطيَّارة رُبع متر آخر.

يدخل الليل، ونرى الطيَّـارة كخيال، يقترب فرد حمام أبيـض من طائرتنـا، ينقرها ثم يكمل رحلتـه في الطيران، تترنَّـح الطيَّـارة، تقترب من الأرض وهي تلـفّ في دوامة كبيرة، تنزل متوفة السـليوفان مهوشة، كأم سلطان وهي خارجـة مـن خناقة. يلفّ حمـادة الخيط بسرعـة، تتضخم شَـلَّة الخيط كما كانت في العصاري، تسقط الطيَّارة بسرعة بعـد أن طـارت بمجهود كبـير وجِيَـل، يحملها سـلطان فوق كتفه، ويحمل حمادة شَـلَّة الخيط، ويقنعنا سـلطان بأن المسألة بسيطة، فالهيكل سليم والخيط ملفوف والسليوفان رخيص، في الغد سـيدفع كل واحد شـلنًا بدلًا من بريزة، وكالعادة، سـلطان لن يدفع، سيشترك بمجهوده، سيأخذ السـليوفان القديـم ويصنـع منه ذيـلًا جديدًا، لـن يجعله مترين، سيقوم بإطالته لأربعة أمتار، وهذه الطيَّارة الجديدة لن يستطيع إسقاطها ديناصور. هكذا قال سلطان.

لعبة الكلام

يسكن فوقنا مباشرة عم درديري، رجل صعيدي ينطق حرف الجيم دالًا، حتى تخيّلت أن اسمه في الأصل «جرجيري» ولكنه ينطقه بالصعيدي، وعمي «مُراد» أيضًا كان ينطق الراء غينًا، وكنت أنتظر كلامه بشغف وأحبّ الحديث معه، أتوقّعه عندما يقول «مش هتغوّح مع أبوك»، أو عندما ينفجر غيظًا في ابنه «حغام عليك طلعت غوحي»، وتعجّبت حينما رأيت خطّه في خطاب وهو يكتب الراء كما هي راءً.

أثناء عودتي من المدرسة كنتُ أمرُّ على بيت عمي

مُراد، وأحيانًا أجد عم درديري جالسًا معه، ذات مرة كانا يتحدّثان عن السمك والخياشيم، وتخيّلت أنها «خراشيم» في الأصل، يفتح عم درديري موضوعات مختلفة لا يستطيع إغلاقها، فيقفز إلى غيرها بسرعة. يسأل عمي مُراد:

ـ الددع دادارين ده طلع الجمر صُح؟

ويرد عمي بنبرة الخبير بالمعلومات الصحيحة:

ـ طلع يا دغديغي. بس غوسيا بتشكك في الموضوع ده.

وينزلق الحوار بينهما بسرعة إلى مناطق كثيرة لا يربطها شيء:

ـ أم سوغيا مغات أبو سعودي جنازتها الليلة.

ويرد عم درديري:

ـ ما دايم إلا وده الله.

تمرّ فترة صمت. ثم يقول عم درديري:

ـ هيّ الوليّة أم سوريا دي الله يرحمها يعني؛ كان ليها بنت اسمها سوريا؟

يفكّر عمي قليلًا:

ـ لأ. ولا أبـو سـعودي كان لـه ابن اسـمه سـعودي. الاتنين مكانوش بيخلّفوا.

يهرش عم درديري في قفاه:

ـ الدنيا دي يا ددع فيها حادات غريبة.

ويرد عمي دون أن ينظر لضيفه:

ـ كل اسـم هتلاقي له مبغغات.

يتوقف عم درديري عن الهرش.

ـ هتلاقي له إيه يا بوي؟

لم يـرَ كل منهـما عيـب نفسـه، لكنـه يرى بشـدة عيب الآخر، فعندما تتكرر كلمة فيها حرف الجيم كثيرًا يتبسـم عمـي، وعندما يتكـرر حرف الراء كغين كثيرًا على لسـان عمي يضحك عم درديري، وأنـا أقف بعيدًا أتابع الاثنين وهما يكملان حوارهما باندماج:

ـ بالك يـا دغديغي. لو يعملوا أطبـاق طايغة في الهوا، كنت أول واحد يشتغي منها، حتى لو بمية جنيه.

ـ مية دنيه، ليه يا بوي. هيطلعنا الجمر اياك.

ـ ممكن.

ويسرح عم درديري وهو رافعٌ رأسه إلى السماء، ثم يمطّ تعجبه في كلمة واحدة:

ـ يا بوووي. نطلعوا الجمر في طبج. طيب معندهمش يا مراد طبيج واحد يكفي نفرين؟ أنا وانتا يعني. بس بأدرة واحدة.

يعتدل عمي على الكنبة ويرد:

ـ ممكن.

ـ عربية الترمس تديب لها عشرة دنيه، ونرهن النحاسات والدهبات باربعين ونهد من هنا يا بوي.

ويبدأ صوت المسجّل في الشارع يقرأ القرآن، فيقوم عمي من على الكنبة ويقول لعم درديري:

ـ إيدك معايا نخغّجها بغّه.

ويرفع عم درديري الكنبة مع عمي مراد، يخرجان إلى

الشارع وهما يحملانها بلا فرش، يضعانها بجوار كنب آخر رصّه جيران آخرون في صوان أم سوريا. كان الصمت يخيّم على الحضور، لم يخيّم على الصبي الذي كان واقفًا فوق سلم يضبط قُماش فِراشة الصوان، لم يكن عمي مراد أو عم درديري مستعدّان للحديث عن الموت الآن، فعادا إلى حيث جاءا، بيت عمي، جلسا على حصيرة وعادت الروح إلى حوارهما من جديد:

ـ إلا قول لي يا دغديغي. انتَ عاوز تطلع القمغ ليه؟

يضحك عم درديري ويلفّ سيجارة:

ـ طهجت يا واد عمي من الولية والعيال وعربية الترمس المعفنة دي.

قال وهو يشير إلى عربته اليد الواقفة بالخارج، الترمس تلفّ من حوله أسراب الذباب، وعيل يقف بجوار العربة في يده قرش، يُخرج عم درديري يده من الشبّاك ويشيح للولد الواقف:

ـ غور ياد، معنبيعش انهارده.

ثم يسحب من سيجارته الملفوفة نفسًا عميقًا ويتابع الدخّان الصاعد، يقول بصوت هادئ وحالم وهو يبتسم:

ـ احنا عم نمخمخ في طلوع الجَمَر ياد. مش راح نبيع ترمس تاني عاد.

يقول لعمي:

ـ لافيني طبج.

ويعطيه عمي الطبق، فيخرج ويملأه بالترمس والفول المحمّص، يعصر عليه ليمونتين ويدخل:

ـ كُل يا مُراد.

ثم يكتشف وجودي معهم:

ـ وانتَ ياد يا ايمن. تعالى كُل.

وأمدّ يدي في الطبق وآخذ ثلاث حبّات، أتابع حوارهما، يصمتان قليلًا ثم تدبّ الروح في لسان عمي:

ـ بيقول لك سنة ألفين الأطباق الطايغة دي هتبقى زي الساعات كده، مع كل واحد.

وينظر عم درديري إلى معصمه فلا يجد ساعة:

ـ سنة ألفين. تطلع ايه سنة ألفين دي؟ أومال احنا جاعدين في سنة كام يا مراد؟

يملأ عمي يده بالترمس ويمزمز فيه على مهل ويقول:

ـ احنا سنة ٧٨.

يخبط عم دريري عمامته البيضاء بكفّه الكبير:

ـ يا جِوّة الله. دي الدنيا فيها حادات كتيرة يا واد عمي الواحد ميعرفهاش.

ويعلو صوت الميكروفون بالقرآن الكريم، يطغى الصوت على حوارهما، يقوم عم درديري عندما يرى زوجته تقف أمام الباب، في يدها دلو به مياه متسخة، تربط وسطها بشال قديم وتقف حافية على العتبة النظيفة:

ـ خلصتي مسح السلم؟

تُومئ زوجته برأسها دون كلام، تنصرف بالدلو إلى الخارج ويتبعها طفل بلا بنطلون، تملأ المكان رائحة الفنيك والكلور، ويقوم عمي مراد يتبعه عم درديري في اتجاه صوان عزاء أم سوريا زوجة أبو سعودي.

عبد الرسول الكافر

سلطان صاحبي ابن سرياقوسي قال لي حكاية ولم أصدّقها، واحد ساكن في شارع بعيد عنا تحوَّل إلى قرد.

- إزاي يا سلطان؟

- زي الناس.

لم أكن أعرف معنى واضحًا لكلمة «زي الناس»، وتبادر السؤال: كيف يمكن أن يتحوّل إنسان إلى حيوان؟ خاصة لو كان حيوانًا قريب الشبه جدًا بالإنسان مثل القرد، جسده بالكامل مليء بشعر أسود كثيف، يمشي على أربع وله ذيل. كان شيئًا شيقًا أن أعرف كيف حدث

ذلك لرجل ولدته أمه الآدمية وعملت له سبوعًا ودقّتْ له الهون، واختار له أبوه اسم عبد الرسول.

سـلطان يمصّ عـود قصـب ويقـذف كلاب الطريق بالمُصاصة. توقّف عن المصّ وقال:

- اتوضا باللبن وداس على المصحف.

لم أتخيّل إنسـانًا يمكنـه أن يُقدِم على فعل مثل هذا أبدًا، لم يتوقـف خيـالي عند جـرأة عبـد الرسـول، لكنني كنت منشـغلًا بما وصل إليه شكله من تغـيّرات، لم أعرف عبد الرسـول هذا من قبل، ولم أعرف كيف كان شـكله أيام أن كان إنسـانًا، فرسمه خيالي بسرعة على هيئة قرد كبير قريب الشبه بالغوريلا، مثلما كان في الماضي شخصًا كبيرًا.

لا أعرف لماذا حرصـتُ على معرفة التفاصيل، من أين اشـترى اللبن الذي توضأ به؟ وهـل كان المصحف الذي مزَقه كبيرًا أم صغيرًا؟ لم يُجب سـلطان ابن سرياقوسي على أسـئلتي، بـل ظلّ يمـصّ القصب ويرمـي المُصاصة فوق الكلاب في الشارع، ثم أجاب عن أشياء لم أسأل عنها:

ـ الواد حمادة بيقول إن الناس حوالين بيت عبد الرسول زي النمل. تقولش كعبة.

ـ طيب ما تيجي نروح عنده.

ينظر سلطان إلى آخر عقلة قصب في العود:

ـ بس دا بيته بعيد أوي. عند بتاع الجير.

أصمت ولا أرد على سلطان. فقد كان «بتاع الجير» أبعد مكان يعرفه أكبر العيال في الشارع، يقع على بُعد عشرة شوارع وعشرين صندوق زبالة وخمسين دكانًا ومائتي كلب متشرد. كان بيّاع الجير بعيدًا جدًا بمقاييسنا، ربما يقع عند آخر حدود الكون، لكننا سِرنا أنا وسلطان بدافع غير مرئي، كنتُ أريد أن أرى شخصًا كافرًا ولو لمرة واحدة في حياتي، لون بشرته، نظراته وتصرفاته، هُيّء لي بأن كل المؤمنين يريدون أن يلقوا ولو نظرة واحدة على عبد الرسول الكافر.

أنهى سلطان آخر عُقلة في عود القصب ومسح يديه في هدومه. ثم راح يعاكس البنات، يُصفّر ويزغر، وتشتمه

البنات في الشارع، ويشتمهن بشتائم أفظع. نطوي الشوارع ونرميها خلفنا، أرى أماكن لأول مرَّة، تخطينا البنزينة الثانية ومازالت لدينا القدرة على طي شوارع أخرى كثيرة، المهم أن نرى عبد الرسول بأي ثمن.

يخطف سلطان برتقالة من عربة يد بخفَّة، لا يراه البائع، ولا يقول له سلطان، وبعد أن نبتعد يقشّرها، يلتهمها ولا يتكلم، يصفِّر لبنت وتشتمه بأمه، وأحدّثه عن الكافر عبد الرسول:

ـ وهيفضل ياكل لحمة ومسقعة زيّنا بقى ولا حياكل موز وسوداني؟

يضع في فمه آخر فص برتقال ويشرح لي:

ـ على حسب. لو اتحوّل من جواه لقرد يبقى لازم هياكل موز، ولو اتحوّل من برَّه بس يبقى هياكل عادي، ولو طلع له ديل يبقى أكيد هيودوه الجنينة ومحدش هيعرف إنه كان بني آدم زيّنا، وممكن نزوره في العيد كمان.

وأفكّر:

ـ نزوره؟

وأسرح في كلمات سلطان ابن سرياقوسي. وقبل أن أطرح عليه مزيدًا من الاستفسارات يظهر من بعيد رجل الجير، دكّان صغير بلا لافتة، تحتل كُتل الجير الحي مساحة كبيرة أمامه، يلبس الرجل بوتًا بلاستيكيًا ويرش الكُتل البيضاء بخرطوم تندفع منه المياه بقوّة:

ـ خلي بالك احنا قرّبنا.

يقول سلطان ويخفق قلبي، وتبدأ حاسة التخيّل تعمل بأقصى طاقتها، أتذكّر بشكل سريع كل القصص الخرافية التي سمعتها في حكايات أو رأيتها في منام، الرجل أبو رجل واحدة أطول من عمود النور، والرجل صاحب الأقدام الأربعة كحوافر الخيل.

نبتعد عن رجل الجير، ويبتعد دكّانه الحليبي الصغير عن أعيننا، نطوي شارعين بعد الجير، وينظر سلطان لأعلى، يبحث عن شيء، يقطع سرحاني صوته وهو يكلّم نفسه:

ـ كان فيه جامع هنا.

ثم يوقف أحد المارة:

ـ فين شارع وجيه سعادة يا عم؟

فيرد المار:

ـ اللي فيه عبد الرسول الكافر؟

ـ آه.

ـ على طول في أول يمين.

ونسير على طول، وقبل أن ننعطف يمينًا أسأل سلطان:

ـ هوَّ احنا هندخل الشارع على طول كده نلاقيهم رابطينه بسلسلة والناس واقفة تتفرج عليه؟

لا يهتم سلطان بسؤالي، يندفع أمامي وأتبعه أنا بخطوات حذرة.

نحن الآن في شارع وجيه سعادة، الشارع الذي عاش فيه عبد الرسول الكافر قبل أن يصبح كافرًا، لكننا لم نجد أي أثر لجلبة أو زحام، الشارع هادئ جدًا، العيال يلعبون

بالنحلـة أو يقذفون البلي المُلوَّن، والرجال يسـيرون شـبه ناعسـين، والنساء يجلسـن في الطرقات ويتهامسن، يتعلّق في أثدائهن عيال بلا بناطيل. يتوقّف سلطان أمام محل بقالة صغير ويسأل صاحبه:

ـ أومال فين بيت عبد الرسول؟

فيرد العجوز وهو مايزال داخل الدكّان:

ـ الكافر؟

ـ آه.

يخـرج الرجـل العجـوز ويجلـس عـلى حجـر أمامنا، يسحب شهيقًا عميقًا ثم يزفره بسرعة:

ـ يـا ابنـي انتَ وهـوَّ كافر ايـه بس، دي تهمة علشـان يبعدوه بها عن البيت. الواد عبد الرسول ده أطيب اخواته.

ويتجاذب معه سلطان الكلام:

ـ هُمَّا مين اللي يبعدوه؟

ـ إخواته.

وأسأل أنا:

ـ لو هيَّ تهمة باطلة يا حاج مكانش ربنا هيحوّله لقرد.

يضحك العجوز ويفتح فمه الواسع المظلم:

ـ قرد؟ انتوا منين يا ولاد؟

يرد سلطان الذي بدأ يشعر بالخطر:

ـ من عند البنزينة.

يخبط العجوز على فخذه بكفّه:

ـ ياه. من عند البنزينة ووصلت لكم حكاية عبد الرسول؟ قرد إيه بس، دول اخواته هما اللي طلّعوا عليه الإشاعات دي، إنه كافر وبقى قرد والكلام الفاضي ده.

وهنا عدت أفكّر في كل من سألناهم قبل أن نأتي إلى هنا، الجميع يعرف بأنه كافر، فقال العجوز بعد صمت حزين:

ـ يا ولاد الناس بتصدّق الكلام بسرعة، بالذات لو كان كلام غريب، الواد عبد الرسول ده عارف ربنا وهوَّ

الوحيد في اخواته اللي بيصلّي في الجامع، طيب إيه رأيكم بقى ان إخواته هُما اللي كفرة، لا عارفين ربنا ولا بيركعوها.

وبدأت الحسابات تختلط في رأسي، ولكني لا أصدّق كلام العجوز، بل أريد أن أرى عبد الرسول الكافر، لذلك السبب قطعت مسافة عشرة شوارع وعشرين صندوق زبالة وخمسين دكّانًا ومائتي كلب متشرد وأتيت إلى هُنا، ولا أتخيل بأن أعود كما جئت، دون أن أرى عبد الرسول الكافر. يقول سلطان:

ـ بس انتَ يا حاج قلت لنا أول ما سألناك، عبدالرسول الكافر، ليه بقى ما دام هوَّ مظلوم؟

تنهد العجوز من جديد:

ـ انتوا عاوزين تصدّقوا اللي جيتوا هنا علشانه، يبقى مش هتصدّقوني، والله يا ولاد الواد بريء من كل التهم والكلام الفارغ ده، إذا كان اخواته أثّروا على الحكومة ذات نفسها، البوكس جه من يومين خد الواد وحطّ الكلابشات في إيده، وهمَّ لا شافوا مصحف مقطّع ولا شافوا لبن مدلوق، والواد كده ممكن يروح في الرِجلين.

حاولوا بس تفهّموا الناس إن عبد الرسول بريء.

ونترك الرجل الذي لم يـرضِ أيًا من طموحاتنا، نتركه يتكلّم وننصرف.

في منتصف الشـارع يتوقف سلطان أمام شخص يقف عـلى حجـر في منتصف الشـارع، يصيح ويلـمّ الناس من حوله:

ـ يعني يرضيكم؟ إذا كان يرضيكم يبقى يرضيني.

والجموع من حوله يؤكّدون في صوت جهوري واثق:

ـ لأ. ميرضيناش.

ويقترب البقّال العجوز من الرجل الذي يصيح، يقول بصوت ضعيف لا يظهر وسـط الناس الذين يزيد عددهم بسرعة:

ـ حـرام عليـك يـا عبـد الله. أخـوك عبـد الرسـول ميسـتحقش منك كل ده، إذا كان على البيت هوَّ قال لي إنه هيتنازل عن نصيبه لك انتَ وسنيَّة.

يرد الرجل بصوت أعلى من الجميع:

ـ حقي أنا مش عاوزه مِنّه. بس حق ربنا مش هسيبه.

الدائرة تزداد اتساعًا، الرؤوس تهتز كلما تحدّث الرجل، ولا تتجاوب مع الكلام كلما تحدّث البقّال العجوز، يتداخل الصوتان، الرجل الضخم الواقف على الحجر والعجوز النحيل الواقف على الأرض:

ـ القرآن يا مؤمنين..

ـ أخوك يا عبد الله..

ـ النار. الكافر!

ـ أخوك يا ابني. والصفر عمره...

ـ كلام ربنا. المصحف!

ـ عبد الرسول..

ـ حق الله!

ـ عبد الرسول!

ـ ربنا!

يخفت صوت البقّال العجوز ثم يتلاشى تمامًا. تزداد

أعـداد الناس حول الرجـل الصائح الواقـف على الحجر في منتصف الشـارع، يُغلق الشـارع من الجانبين، نقف أنا وسـلطان وسـط الزحام، نسـتمع لصوت الرجـل. أتابع البقّال العجوز في آخر الشـارع وهو يمشي وحده، منحنيًا مهزومًـا، فاتتني بعض كلـمات الرجل الواقف على الحجر أثنـاء متابعتي للعجوز المُنسـحب، لم أسـمع سِـوى كلمة «معايـا؟»، قالها الرجل، والـرد المُزلزِل مـن الناس الذين ملأوا الشارع بالكامل: «معاك».

ينـزل الرجل مـن على الحجـر ويقود شـعبه الصغير، يهرول سـلطان ليلحق بالناس، وأنظر أنا للعجوز البعيد، أتمنـى في نفسي أن أتبعه وحدي، ولكن قدمي تترك رغبتي وتمشي وراء الناس، وأسمع لساني ينطق بصوتي:

ـ استنى يا سلطان.

ثم أهرول وأتبعهم.

إلى الجنّة

مياه المجاري الخضراء تلمع تحت أشعة الشّمس، تطفو فوقها أكياس مقرمشاتٍ وشـنط بلاستيك وفِرَد شباشبٍ هالكة، نتخطّاها أنا وأبي، نتّجه نحو الباب الخشبي الكبير، نمـرّ أمام صندوق تبرعاتٍ بجـواره امرأة تغطّي وجهها، لا يظهـر منهـا إلا كفٌّ ممدودة، رائحـة البخور تغطّي على رائحة المياه الخضراء، نخلع نعلينا وندخل.

نجلـس بالداخل، يمـرّ بنا رجل عجـوز يحمل في يده كيس بلاسـتيك ويوزّع على الأطفـال الملبّس فيضعونه في جيوب الجلاليـب البيضاء، تنتهي الخطبـة ويتقدّم الرجل

العجوز من المنبر بعد أن يفرغ كيسه، يقيم الصلاة وننتظم في صفوفٍ استعدادًا للقاء الله.

تنتهي الركعة الأولى على خير، ونقف استعدادًا للركعة الثانية، يمسكني أبي من يدي، أُحاذي أصابع قدمي على الخطّ الأبيض الملزوق فوق وبر الموكيت الأخضر، أرفع ذراعيَّ مثلما يفعل، ثم أضع كفّي اليمنى على اليسرى من جديد، تمامًا مثلما فعلتُ في الركعة الأولى، أنظر إلى موضع السجود مثل كل مَنْ حولي، وأتذكّر كلمات أمي المرتبطة بالمسجد والصلاة: «لما تنطق باسم ربنا تقول سبحانه وتعالى».

«الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»

أعتدل وأستعدّ لرؤية الكائنات البيضاء التي يحدّثني عنها أبي، يقول إنها تكتب كل ما أفعله، وأتذكّر كل ما أفعله، وأتمنى أن ينقصف القلم أو تخلص الورقة قبل أن يتمكّنوا من كتابة بعض الأشياء. وأعود فأتذكّر كلمات أمي المرتبطة بالمسجد والصلاة: «لما تقول اسم النبي لازم تقول عليه الصلاة والسلام».

«الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ»

لا أعرف لماذا يسعل المصلّون في الركعة الثانية، يهتزّون قليلًا في أماكنهم قبل أن يهدأ الصوت. بعد قليل يمرّ من بين الصفوف طفل يلبس جلابية بيضاء، يتبعه طفل آخر أكبر منه قليلًا، الطفل الأول مذعور، والثاني يهجم عليه ويخمشه بعنف، أنظر للألوان البيضاء من حولي، لا أحد من الرجال الكبار يريد أن يتحرّك وينقذ الولد صاحب الجلابية البيضاء من مخالب الولد الآخر. عندما تحرّكتُ وتركتُ الصفّ في اتجاههما أمسكني أبي من يدي وأعادني لمحاذاته مرّة أخرى.

«مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»

سرحتُ من إمام الصلاة ولم أعُد منتبهًا لما يقول كما كنتُ في أول الصلاة، فقد ركب الولد الكبير فوق الجلابية البيضاء التي تفرك من تحته، أوسع صاحبها زغدًا وضربًا حتى بانتْ خطوط رفيعة حمراء فوق وجهه، وعندما حاولتُ التدخّل جذبني أبي وأعادني للصف مرّة أخرى.

«إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ»

حاولتُ الانتباه لصوت الإمام العالي الذي غطّى على صوت الولدين، فقد كان أمام الشيخ ميكروفون، أما الولد المضروب فيصرخ بأعلى مستوى في أحباله الصوتية الصغيرة. الصوت الخافت لفت أنظار عددٍ غير قليلٍ من أصحاب الجلاليب البيضاء، لكنهم لم يهتمّوا بالأمر، لم يتدخّلوا، تركوا المشاجرة تكبر حتى ظهرت الخطوط الحمراء واضحة فوق وجه الولد الصغير، كان يصرخ في نفس التوقيت الذي يقرأ فيه الشيخ.

«اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ»

ركب الولد فوق مَنْ يضربه، لمَّا ضاق به الصغير صاحب الجلابية رفعه فوق ظهره وطاف به بين الصفوف، لعلّه يجد منصفًا، ألِفُ رقبتي لمتابعتهما، فيعدل أبي من وضع رأسي، أعود صامتًا لسيرتي الأولى، لكنّ رأسي منشغلٌ بهما، أراهما بطرف عيني، لم يعد كلام الشيخ يهمّني، فدائمًا لا أفهم ما يقوله. أنساهما لثوانٍ، ثم أعود وأتذكّرهما عندما يعلو الصراخ، من الخلف يأتي، ومن الأمام صداه، والجلاليب البيضاء تزحم المكان، واللحى البيضاء المعطرة. عندما

أركع أرى أمشاط الأقدام نظيفة، الأنفاس من حولي تفوح برائحة العنبر وعصير التفاح، أنشغل في الأشياء المهندمة الجميلة لبرهة، ثم أعود من جديد أنتظر الصراخ الذي غاب عن أذني.

هل كنتُ أتخيّل وجود الولدين، هل يُعشّشان في خيالي فقط ولا وجود لهما في المسجد؟ لكنّ الصوت عاد من جديد، صُراخ أعلى من السابق، ثم مرّا أمامي بهيئة مختلفة، فالولد لم تعد جلابيته بيضاء نقيّة، بقّعها لون أحمر عند جبينه الصغير، والولد صوته راح، يحاول بأحبالٍ صوتية مجروحة أن يستمرّ في الصراخ، لكنّه لا يستطيع، فيجلس مهدودًا خائر العزم والحيل، يجلس بجواره الولد الكبير ويلهث.

«صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ»

بعد أن التقطا الأنفاس عادا للمشاجرة مرّة أخرى، لكن هذه المرّة بدأ لسان الولد الصغير يخرج من فمه ويتحوّل صراخه إلى نباح، وكان الولد الكبير يمسك في يده عصا، لا أعلم من أين جاء بها، ولا أعرف لماذا لم يتدخّل أصحاب الجلاليب البيضاء النظيفة لفضّ هذا

النزاع بين طفلين، كان الجميع مستغرقين في الصلاة، وأنا مستغرقٌ فيما يحدث لصاحب الجلابية البيضاء والطاقية الشبيكة الصغيرة.

«غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ»

ترفع أقدام الولدين بعض الخطوط البيضاء الملزوقة فوق الموكيت الأخضر، لم تعد الصفوف منتظمة، ولم يعد الواقفون منتبهون لمحاذاة الصف أو اعوجاجه، كانوا مستغرقين في أشياء بعيدة، بعيدة تمامًا عمّا يحدث أمامهم، لم أشعر بوجودهم إلا عندما سمعت إشارة البدء..

«وَلاَ الضَّالِّينَ»

«آآآآآآآآمين»، كان صوتهم مزلزلًا، لم أشعر به إلا الآن فقط، كنتُ بينهم لا أسمع إلا همهمات وكلمات يبتلعونها قبل أن ينطقوها. الآن، والآن فقط، طغى صوتهم على كل ما حدث، لم أعد أرى الولدين، ولم يتحدث عنهما أبي، وقت الخروج يعطيني بريزة، يشير إلى المرأة التي تغطي وجهها وهي جالسة بجوار صندوق التبرعات، أرمي البريزة في حِجرها وأعود ليد أبي، نبتعد عن المسجد ونتخطَّى المجاري الطافحة حتى يمكننا العبور إلى البيت.

صدر للكاتب

١- خبز أسود. مجموعة قصصية، دار ملامح ٢٠٠٨.

٢- جوابات للسما، مجموعة قصصية، ط أولى دار ملامح ٢٠٠٩ ط ثانية دار أكتب ٢٠١٦.

٣- فيل يتدرب على الإنسانية، يوميات، دار ملامح ٢٠١٠.

٤- إغواء يوسف، رواية، ط أولى دار ميريت ٢٠١١ ط ثانية دار أكتب ٢٠١٥.

٥- حكاية يوسف إدريس، مجموعة قصصية، الهيئة العامة للكتاب ٢٠١٢.

٦- كتالوج شندلر، رواية، دار نهضة مصر ٢٠١٣.

٧- الزيارة (ما حدث لعمر سعيد إبراهيم)، رواية، دار أكتب ٢٠١٤.

٨- صباح الخير يا أنا، ديوان بالعامية المصرية، دار سما ٢٠١٤.

٩- رحلة العائلة غير المقدسة، رواية، الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٥.

المحتويات



حكى لي حكاية الولد أدهم الذي شقّ بطن الولد كريم باحثًا عن "النونو"، أتحسس سُرّتي وأسأله:

- هوّ في بطن كل واحد نونو؟

ويرد بنبرة خبير:

- طبعًا، في بطن كل واحد نونو.

بعد أن ننتهي من أكل كائنات العجين نعود إلى موضوع الولد أدهم والولد كريم ويقول غطّاس:

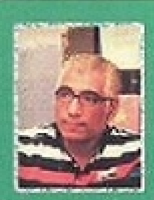
- عارف.. الواد كريم ملقوش في بطنه نونو. لقوا دم بس.

وعدت أنجذب لحكايات الولد غطّاس مرة أخرى. وأسأله:

- وإيه اللي حصل لكريم؟

يرد غطّاس وهو يشبّ فوق السور ويبحث عن رأس أصلع يبصق فوقه:

- محصلش له حاجة. بس مات.



عمرو العادلي، روائي وقاص مصري، تخرج من قسم الاجتماع بجامعة عين شمس وباحث في علم اجتماع الأدب، صدرت له العديد من الأعمال، أبرزها مجموعة "حكاية يوسف إدريس" سنة ٢٠١٢، والتي حصدت جائزة ساويرس في القصة القصيرة فرع كبار الكتاب لسنة ٢٠١٦، ورواية "الزيارة" سنة ٢٠١٤، والتي حصل من خلالها على جائزة الدولة التشجيعية في الآداب لسنة ٢٠١٦. من أعماله الأخرى روايات "إغواء يوسف" سنة ٢٠١١، "كتالوج شاندلر" سنة ٢٠١٣، و"رحلة العائلة غير المقدسة" سنة ٢٠١٥.

